تجليد صالح الدقر
تلفون ٢٢٢٩٧٧

DATE DUE

JAFET LIB.
RESERVE
8 MAR 1994

JAFET LIB.
RESERVE
31 MAR 1994

للمؤلف

« أ » الكتب التي تتناول موضوع الوطنية والقومية مباشرة :

* آراء واحاديث في الوطنية والقومية (الطبعة الثانية) القاهرة ١٩٤٤
* آراء واحاديث في القومية العربية . . . . . القاهرة ١٩٥١
* العروبة بين دعاتها ومعارضيها (الطبعة الثانية) القاهرة ١٩٥٤
* محاضرات في نشوء الفكرة القومية (الطبعة الثانية) القاهرة ١٩٥٤

«ب» الكتب التي تتناول بعض المواضيع المتصلة بقضايا القومية

* يوم ميسلون . . . . . بيروت ١٩٤٧
* صفحات من الماضي القريب . . . . . بيروت ١٩٤٨
* آراء واحاديث في التاريخ والاجتماع . . . . . القاهرة ١٩٥١
* آراء واحاديث في العلم والاخلاق والثقافة . . . . القاهرة ١٩٥١

حولية الثقافة العربية :

* السنة الاولى – حتى ١٩٤٩ – ١٩٥٠ القاهرة ١٩٥٠
* السنة الثانية – عن ١٩٥٠ – ١٩٥١ القاهرة ١٩٥٢
* السنة الثالثة – عن ١٩٥١ – ١٩٥٢ القاهرة ١٩٥٣
* السنة الرابعة – عن ١٩٥٢ – ١٩٥٣ القاهرة ١٩٥٤

321.8
H97uA
C.1

ابو خلدون

ساطع الحصري

العروبة أولاً!

وأخراً ولا شيء غيرها

الطبعة الثانية

دار العلم للملايين
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى بيروت ، شباط ١٩٥٥
الطبعة الثانية بيروت ، تشرين الاول ١٩٥٥

مقدّمة

كثيراً ما يسألونني :

– ما هي الطريقة العملية ، لتحقيق الوحدة العربية ؟

وفي بعض الاحيان ، يستهلون هذا السؤال ، بمقدمة قصيرة :

– أنت تتكلم عن القومية العربية ، وتدعو الى الوحدة ولكنك لا تقول لنا : ما هي الوسائل العملية لتحقيق هذه الوحدة ؟

وأما أنا ، فأقول لهؤلاء ، على الدوام :

– اني اعتقد أن اول ما يجب عمله لتحقيق الوحدة العربية – في الاحوال الحاضرة – هو : ايقاظ الشعور بالقومية العربية ، وبث الايمان بوحدة هذه الامة ...

عندما يستيقظ هذا الشعور تمام اليقظة ، وعندما ينتشر هذا الايمان ويرسخ في النفوس تمام الرسوخ ... تتوضح السبل ، وتتمهد الطرق ، أمام الوحدة العربية ... وتزول العقبات وتنهار العوائق التي تعترضها ... بكل سهولة .

ولكن ... اذا بقي الشعور بالقومية العربية ، على ما هو عليه من الضآلة... والايمان بوحدة الامة العربية، على ما هو عليه من الضعف ... تبدو أتفه العوائق بمثابة العقبات التي لا يمكن اقتحامها ... فتتوقف الجهود أمام أولى الصدمات ... وتنهار العزائم أمام اصغر المشاكل ...

ولذلك ، أنا أسعى على الدوام ، وراء ايقـــاظ الشعور بالقومية العربية ، وبث الايمان بوحدة الامة العربية .

ولقد كتبت الصحائف التالية ، خلال هذا الصيف ، بهـــذا الاعتقاد ، ولهذا الغرض .

أبو خلدون

ساطع الحصري

القاهرة ١٠ ايلول ١٩٥٤

ما أغربنا !

اننا ثرنا على الانكليز ، ثرنا على الفرنسيين ...

ثرنا على الذين استولوا على بلادنا، وحاولوا استعبادنا...

كررنا الثورات الحمراء عدة مرات ، وواصلنا الثورات البيضاء عدة عقود من السنين .

وقاسينا في هذا السبيل ألواناً من العذاب ، وتكبدنا انواعاً من الخسائر ، وضحينا كثيراً من الارواح ...

ولكنا :

عندما تحررنا من نير هؤلاء ... أخذنا نستقدس الحدود التي كانوا قد أقاموها في بلادنا ، بعد أن قطعوا أوصالها ...

ونسينا أن تلك الحدود ، إنما كانت حدود « الحبس الانفرادي »، و« الاقامة الاجبارية» التي كانوا قد فرضوها علينا ...!...

حقائق

يجب ان نعرفها حق المعرفة

ونؤمن بهـــا اشد الايمـــان

١

البلاد العربية

ان جميع البلاد التي يتكلم سكانها باللغة العربية ، هي عربية... مهما تعددت الدول التي تحكمها .

ومهما تنوعت الأعلام التي ترفرف على بناياتها الحكومية .

ومهما تعرجت وتشابكت الحدود التي تفصل بين أقسامها السياسية ..

انها بلاد عربية ..

و « بلاد العرب » ليست الجزيرة العربية وحدها ، كما يزعم البعض ؛ ولكنها جميع البلاد التي يتكلم اهاليها باللغة العربية ..

من جبال زاغروس في الشرق ، الى المحيط الاطلسي في الغرب ، ومن شواطيء البحر الابيض وهضاب أنضول في الشمال ، الى المحيط الهندي ومنابع النيل والصحراء الكبرى في الجنوب.. كلها تدخل في نطاق « بلاد العرب » .

والنشيد الحماسي المعروف :

بلاد العرب اوطاني من الشام لبغدان
ومن نجد الى يمن الى مصر فتطوان

يعبر عن شمول « بلاد العرب » تعبيراً فنياً رائعاً .

٢

العـــرب

ان كل من ينتسب الى البلاد العربية ويتكلم باللغة العربية ، هو عربي ...

مهما كان اسم الدولة التي يحمل جنسيتها وتابعيتها بصورة رسمية .
ومهما كانت الديانة التي يدين بها ، والمذهب الذي ينتمي اليه .
ومهما كان أصله ونسبه ، وتاريخ حياة اسرته ...
فهو عربي ...

* * *

والعروبة ليست خاصة بابناء الجزيرة العربية ، ولا مختصة بالمسلمين وحدهم .

بل انها تشمل كل من ينتسب الى البلاد العربية ويتكلم باللغة العربية .

سواء أكان مصرياً ، او كويتياً ، او مراكشياً ...
وسواء أكان مسلماً ، او مسيحياً .
وسواء أكان سنياً ، او جعفرياً ، او درزياً .
وسواء أكان كاثوليكياً ، او ارثوذكسياً ، او بروتستانتياً ..

فهو من ابناء العروبة ، مادام ينتسب الى بلاد عربية ، ويتكلم باللغة العربية .

٣
الدول العربية

ان الدول العربية القائمة الآن ، لم تتكون ولم تتعدد بمشيئة أهلها ، ولا بمقتضيات طبيعتها . .

انما تكونت وتعددت من جراء الاتفاقات والمعاهـــدات المعقودة بين الدول التي تقاسمت البلاد العربية، وسيطرت عليها..

والحدود الفاصلة بين الدول العربية ايضاً لم تتقرر وفق مصالح البلاد وسكانها ، وانما تقررت بعد المساومات والمناورات الطويلة التي جرت بين الدول المستعمرة ، ضماناً لمصالحها هي ..

والفروق والاختلافات التي تشاهد الآن بين الدول العربية ، من حيث النظم الادارية والتشريعية والاقتصادية، والاتجاهات السياسية.. — انما هي — بأجمعها — من مواريث عهود الاحتلال.

انها وليدة الاستعمار ، حديثة وعارضة .

٤
الامة العربية

العرب امة واحدة .

وما المصريون والعراقيون والمغاربة ... الا شعوب وفروع لامة واحدة ، هي الامة العربية .

وقائع وأحداث

يجب ان نتذكرها ،

ونتأمل فيها ،

ونتعظ بها .

لقد تعرضت البلاد العربية المختلفة ، في الماضي القريب ، – ولا سيما خلال العقد الثالث من القرن الحاضر – لاحداث وعواصف سياسية عديدة ومتنوعة .

خلال تلك السنين ، كان معظم الأقطار العربية ، – ولا سيما القطر المصري – منطوياً على نفسه ، لا يهتم بما يحدث في غيره ؛ ولذلك بقيت تلك الأحداث خارج نطاق اطلاع معظم المثقفين واهتمامهم ، في مختلف البلاد العربية .

وفضلاً عن ذلك ، فقد توالت تلك الاحداث وتلاحقت بسرعة كبيرة ، فصارت الجديدة منها تصرف الاذهان عن الاهتمام بما تقدمها ؛ ولذلك غابت الحوادث المذكورة عن ذاكرة الكثيرين ممن شاهدوها ، في مدة وجيزة .

مع أن بعضها كان شديد الخطورة وعظيم الدلالة ؛ فكان يجب أن لا يغرب عن الأذهان ...

إني سألفت الأنظار ، في الصحائف التالية ، الى طائفة من تلك الوقائع ، لاني أعتقد بأن تذكرها في هذه الأيام ، يفيدنا فائدة كبرى : انه ينير السبل أمام تفكيرنا السياسي ، ويساعد على توجيهه الوجهة السليمة في بحر القضايا العربية ، الذي يزداد تلاطماً يوماً بعد يوم .

بين حلب وعمان

١

خلال الأشهر الأخيرة من سنة ١٩٢٠ ، والأشهر الأولى من سنة ١٩٢١ ، شهد التاريخ ميلاد خمس دويلات عربية على أراضي « الدولة العربية السورية » ، التي لفظت أنفاسها الأخيرة ، عقب يوم ميسلون :

في أقصى الشمال دولة حلب ، وفي أقصى الجنوب دولة شرق الاردن ، وبينهما دول جبل الدروز ، ودمشق ، وجبال العلويين.

كانت دولة شرق الاردن وليدة الانتداب البريطاني ، واما الدول الاخرى فكانت من اولاد الانتداب الفرنسي .

ولكن هذه الدول التي ولدت في سنة واحدة من الانتداب ، لم تنل حظاً متساوياً من الحياة :

كانت دولة حلب أقصرها عمراً : انها لم تعش سوى أربع سنوات وبضعة أشهر ، لانها زالت من الوجود في اليوم الاول من سنة ١٩٢٥ ، ولم تترك أثراً ، سوى علم محفوظ في متحف ،

وبضع ألواح رخامية ، حفر عليها اسم « مرعي باشا رئيس دولة حلب » .

واما دولتا جبل الدروز وجبل العلويين ، فقد امتد بهما العمر ، بعد ذلك نحو عقدين من السنين .

ولكن دولة شرق الاردن ، عاشت الى الآن ، وكل شيء يدل على انها ستعيش بعد ، مدة من الزمان ... وان لم يكن في استطاعة أحد أن يقدر : كم سيطول بها العمر ، بعد الآن .

***

هذه الوقائع التاريخية ، التي لم ينقطع جيل شهودها بعد ، يجب أن لا تغرب عن الاذهان ...

يجب ان لا ننسى بأنه : عندما ولدت دولة شرق الاردن ولد معها أربع دول عربية اخرى ، اشتركت معها في استخلاف الدولة العربية السورية المرحومة .

وكان لكل واحدة من هذه الدول حكومة خاصة ، وعلم خاص ، وميزانية خاصة ، ورئيس خاص ...

ولكن تلك الدول ، زالت من الوجود ، الواحدة بعد الأخرى ؛ لأن البلاد التي كانت تحكمها اتحدت ، فكونت « الدولة السورية » الحالية ، ولم يبق الآن على قيد الحياة ، من هذه التوائم الخمسة ، سوى دولة الاردن .

فيجدر بنا ان نتساءل : لماذا ؟ وكيف ؟

لماذا عاشت الدويلة التي انشئت في شرق الاردن الى الآن ، وظلت قائمة بذاتها ، منفصلة عن سورية وعن سائر البلاد العربية

بوجه عام ، في حين ان الدويلات التي ولدت معها لم تعمر طويلاً؟

كيف طال العمر بها حتى الآن ، مع ان الدويلة التي أنشئت في حلب – مثلاً – لم تعمر سوى أربعة اعوام وثلث عام ؟

هل كانت طبيعة الأراضي التي قامت عليها دولة شرق الاردن مختلفة عن سائر المقاطعات السورية والبلاد العربية ، اختلافاً يستوجب هذا الانفصال ؟

هل كانت طبائع سكان شرق الاردن ورغباتهم مختلفة عن طبائع ورغبات سكان سائر البلاد السورية والأقطار العربية اختلافاً يحول دون اتحادهم معهم ؟

هل كانت هناك اوضاع اقتصادية خاصة ، تحتم على الاردن الانفصال عن غيرها ، وموارد مالية وفيرة تساعد على تغذية دولة قائمة بذاتها ؟

وخلاصة القول : هل كان في أحوال البلاد التي قامت فيها دولة شرق الاردن ، شيء من الخصائص الطبيعية والبشرية ، الجغرافية أو التاريخية أو القومية أو الاقتصادية التي تستلزم بقاءها منفصلة عن سوريا وسائر البلاد العربية ؟

كلا ! لا شيء من هذه ، على الاطلاق .

بل ، بعكس ذلك ، ان بقاء الاردن – بهذه الصورة ، وطول هذه المدة – منفصلة عن سائر البلاد العربية ، كان مخالفاً لطبائع الاشياء ، ومقتضيات الاحوال ، من جميع هذه الوجوه ...

ان هذه الحقيقة تظهر الى العيان بوضوح اكبر ، عندما

نقوم بمقارنة بين الاردن وبين حلب بوجه خاص :

في العهد العثماني ، كانت حلب ولاية قائمة بذاتها ، ولكن شرق الاردن كانت متصرفية تتبع ولاية الشام ...

وفي تاريخ أبعد من ذلك ، كانت حلب عاصمة لدولة عربية راقية وقوية الشكيمة ، لعبت دوراً هاماً في تاريخ الشرق الادنى ، في حين ان شرق الاردن كانت تعيش على هامش التاريخ على الدوام ...

وكانت ولاية حلب من أرقى الولايات العثمانية ، في حين أن متصرفية الكرك كانت من أبعد المتصرفيات عن الرقي والعمران ...

وكان عدد سكان مدينة حلب وحدها يزيد على عدد سكان البلاد الاردنية بأجمعها .

وكان عدد حملة الشهادات العالية في حلب ، يزيد عشرات وعشرات المرات على عدد حملة الشهادات الثانوية من أهالي شرق الأردن ...

وكانت حلب تمتاز بأوضاع اقتصادية مزدهرة — من حيث التجارة والزراعة والصناعة — في حين ان بلاد شرق الأردن كانت فقيرة ، ومتأخرة في جميع هذه الامور ..

فلماذا ، اذن ، على الرغم من جميع الامور التي ذكرتها آنفاً ، اتحدت حلب مع دمشق ، بعد أربعة أعوام وثلث العام ، وظلت الاردن دولة قائمة بذاتها الى الآن ؟

لنلق نظرة سريعة على سير الوقائع — منذ بدايتها —

لنتوصل الى جواب هذا السؤال :

٢

عندما استولت الجيوش الفرنسية عـــلى سورية ، عقب يوم ميسلون ، وقضت على « الدولة العربية » القائمة فيهـا ... قرر الجنرال غورو – المندوب السامي والقائـــد العام – تجزئة أراضي تلك الدولة ، لتتيسر له السيطرة عليها بأقل جهد مستطاع.

فأولا ، – في أول أيلول سنة ١٩٢٠ – سلخ عنها البقاع مع بعض الاراضي الأخرى ، وألحقها بلبنان . ثم ، بعد اسبوع من ذلك التاريخ ، فصل عنها حلب وأعلن انشاء دولة هناك . وبعد مدة وجيزة ، أعلن قيام دولة في جبـــل العلويين . وبعد بضعة أشهر ، أضاف الى هـــذه السلسلة دولة أخرى ، تقوم في جبل الدروز . وزعم ان هذه الاجراءات ستضمن لفرنسا السيطرة على تلك البلاد بسهولة ، والى الأبد ...

* * *

عندما أنشأ الجنرال غورو « دولة حلب » صرح في بيانـــه الرسمي بانه قرر ذلك « نزولاً عند رغائب الاهـــالي » ، و « مراعاة لخصائص البلاد » ؛ وطبعاً لم يعجز عن ايجاد شخص يخدم اغراضه ، بغية الحصول على لقب « رئيس دولة حلب » والتمتع بمنافع هذا اللقب ، وأشخاص يساعدون هذا الرئيس ، بغية الوصول الى المناصب العديدة التي خلقت لهـــذه الدولة الجديدة .

ولكن ... هذه التجزئة أوجدت استياء شديداً في المحـافل

الوطنية . ولذلك ، رأى ساسة فرنسا ان يخففوا وطأتها بانشاء « مجلس اتحاد » ، على ان يعين اعضاؤه تعييناً من قبل الحكومتين ؛ وعهدوا الى هذا المجلس بالنظر في بعض الامور المشتركة التي تهمّ الدولتين .

وفي الوقت نفسه أخذ رجال الانتداب يقومون بدعاية واسعة النطاق بين أهالي حلب وتوابعها ، لترسيخ جذور هذه التجزئة عن طريق « البرهنة على المنافع المادية العظيمة التي ستجنيها البلاد من جراء استقلالها عن دولة دمشق » ، وتوسلوا بشتى الوسائل لحث الناس على الالتفات حول الدولة التي خلقوها ، والتمسك بالانفصال الذي أوجدوه . وواصلوا العمل في هذا السبيل بكل اهتمام وانتظام ، مدة أربعة أعوام .

واعتقدوا ، في آخر الامر ، ان دعاياتهم هذه قد اثمرت الثمرات المرجوة منها ، وتوهموا بأن « المعارضة على اجراءاتهم انحصرت في دولة دمشق وحدها ، واما أهالي حلب وتوابعها فقد اصبحوا مؤمنين بفوائد الانفصال تمام الايمان ، وصاروا مؤيدين للوضع الجديد كل التأييد . »

ولذلك ، رأى المندوب السامي — بناء على تأكيدات وكيله في حلب — أن يوطد أركان هذه الدولة بقرار يصدر من مجلس تمثيلي ، فأمر باجراء انتخابات عامة لتأليف مجلس يقرر دستور دولة حلب .

وجرت الانتخابات تحت مراقبة رجال الانتداب ومعرفة رجال الحكومة الموالية لهم — بطبيعة الحال .

ومع ذلك ، عندما اجتمع المجلس الذي انبثق عن هـذه الانتخابات ، قرر على الفور وباتفاق الآراء ، انهاء الانفصال ، والاتحاد مع دمشق .

هذا القرار ، صدم الفرنسيين صدمة عنيفة ، لانه جاء مخالفاً لما كانوا يتوقعونه مخالفة تامة .

ان سياستهم في هذه القضية فشلت فشلاً ذريعاً . لكنهم لم يستهولوا نتائج هـذا الفشل : لأن دمشق وسائر أقسام سوريا أيضاً كانت تابعة لانتداب فرنسا وخاضعة لسيطرتها ، ولذلك لم يروا من حسن السياسة ان يهملوا القرار الذي صدر من هـذا المجلس بعد ان جمعوه هم بانفسهم ، وطلبوا منه أن يقرر دستور البـلاد .

ولهذا السبب ، وافق المندوب السامي ، على توحيد حلب مع دمشق ، وجعلها جزءاً من الدولة السورية ، اعتبـاراً من بداية سنة ١٩٢٥

وبهذه الصورة انتهت قصة « دولة حلب » ، بعد ان استمرت اربعة أعوام وبضعة اشهر .

* * *

واما قصة دولتي جبل العلويين وجبل الدروز ، فقد طالت اكثر من ذلك بكثير . لان الفرنسيين لم يقدموا هناك على عمل مماثل لما قاموا به في دولة حلب ، بل ابقوا الدولتين تحت سيطرتهم المباشرة ، منفصلتين عن الدولة السورية تمام الانفصال .

ودامت الاحوال على هذا المنوال حتى سنة ١٩٣٦ ، حين جرت

مفاوضات المعاهدة وحدثت أوضاع جديدة .

من المعلوم ان فرنسا لم تستطع أن تقضي على حركات المعارضة والمقاومة التي قامت في سوريا ، على الرغم من جميع وسائل العنف التي لجأت اليها ، والجهود التي بذلتها ، والخسائر التي تكبدتها . فان تلك الحركات كانت تظهر بأشكال متنوعة ، وتتوالى بدون انقطاع ، وتأخذ - بين حين وآخر - شكل ثورات مسلحة ، تتكرر بعنف متزايد ...

ولذلك رأى ساسة فرنسا في آخر الامر ان ينظموا علاقات دولتهم مع الدولة السورية بمعاهدة تعقد مع رجال الحركة الوطنية ، ودخلوا معهم في مفاوضات رسمية ؛ وبناء على اصرار الوطنيين خلال هذه المفاوضات وافقوا على ضم جبل الدروز وجبل العلويين الى سوريا .

فأصدر المندوب السامي قراراً يصرح بأن « جبل الدروز جزء من الدولة السورية » ، وقراراً مماثلاً لذلك يصرح بأن « جبل العلويين جزء من الدولة السورية » . الا أنه أدخل في كل واحد من القرارين المذكورين مادة تنص على ان التنفيذ يكون من تاريخ ابرام المعاهدة .

وبما ان البرلمان الفرنسي لم يبرم المعاهدة ... ظلت اوضاع هاتين الدولتين معلقة ومذبذبة ، الى ان قامت حركات التحرير الاخيرة سنة ١٩٤٤ ، وتم ضمّ الجبلين الى سوريا بصورة نهائية .

وبهذه الصورة ، تكونت دولة سوريا الحالية ، من اتحاد دويلات حلب ودمشق وجبل الدروز وجبل العلويين .. التي

كان قد خلقها الجنرال غورو ، عقب استيلائه على البلاد ..

***

وأما الدولة التي قامت في شرق الأردن ، فقد سارت الامور فيها سيراً يختلف عن كل ما تقدم :

فان بريطانيا عندما قررت خلق الدولة المذكورة ، لم تحاول أن تخدع الناس بالتكلم عن « رغبات الاهالي أو خصائص البلاد» بل اعلنت حقيقة الامر بكل صراحة :

« لما كان الاتفاق المعقود بين بريطانيا وبين فرنسا يقضي بان يكون جنوب خط سايكس بيكو في منطقة النفوذ البريطاني ، لا الفرنسي . . »

« توافق الحكومة البريطانية على انشاء حكومة عربية مستقلة في شرق الاردن ، على ان تكون تحت الانتداب البريطاني ، دون ان تكون مربوطة بحكومة فلسطين ... »

هذه العبارات التي وردت في الكتابات والبيانات الرسمية قد اعلنت على الملأ أن بلاد شرق الاردن انفصلت عن سوريا بناء على اتفاقية سايكس بيكو ، وكونت دولة قائمة بذاتها بناء على رغبة بريطانيا ...

واما كون البلاد فقيرة ، محرومة من موارد مالية تكفي لسد حاجات الدولة الاساسية ... واما كونها متأخرة ، وكون عدد متعلميها قليلاً جداً ... فان كل ذلك لم يحل دون تنفيذ الخطط التي وضعتها السياسة البريطانية ... بل بالعكس ، لقد سهّل ذلك تنفيذَ تلك الخطط وتحقيق اغراضها ، تسهيلاً كبيراً.

لان بريطانيا لم تتأخر – بطبيعة الحال – عن بذل مقدار من المال – في سبيل ضمان سيطرتها على هذه البقعة الاستراتيجية الهامة من الشرق الادنى ، فقررت منح الاردن مساعدة مالية سنوية ، لسد عجز ميزانيتها ، وجعلت بذلك « دولة الاردن » قابلة للحياة ، فضلاً عن انها جنت من وراء ذلك فائدتين فرعيتين :

ان افتقار الحكومة الاردنية الى المال ، كان يزيدها ارتباطاً بالدولة المنتدبة التي تمنحها هذا المال ويجعلها اشد خضوعاً لمشيئة ممثلي تلك الدولة ، بطبيعة الحال .

ثم ان هذه السياسة المالية ، كانت تدخل الى البلاد كل سنة مقداراً من الثروة ، يساعد على تحسين الاحوال الاقتصادية فيها بصورة تدريجية ، وكان ذلك يكسب عهد الانتداب طائفة من الانصار .

واما قلة المتعلمين ، فهي ايضاً كانت تسهل تحقيق اغراض البريطانيين : لان الجهل المخيم على البلاد كان يفسح امام حكومة شرق الاردن مجالاً واسعاً لتعمل ما تشاء – او بالاحرى : لتعمل ما يشاؤه البريطانيون ، او ما يوافقون عليه ، على الاقل – دون ان تخشى حدوث ثورة ، او قيام معارضة تستحق الاهتمام .

ولا حاجة الى القول : ان الدولة التي تكونت في شرق الاردن ، بهذه الصورة ، ما كان يمكن ان تعود وتنضم الى سوريا ، لا بالسهولة التي تم بها اتحاد حلب مع دمشق ، ولا بالطريقة التي سارت عليها الامور في قضية انضمام جبل الدروز وجبل العلويين الى الدولة السورية .

لأن الحدود التي قامت بين شرق الاردن وبين سائر اقسام سوريا ، كانت في حقيقة الامر ، بمثابة حـــدود تفصل منطقة الانتداب البريطاني عن منطقة الانتداب الفرنسي ؛ ولهـــذا السبب ، ما كان يمكن ان تتحد الاردن مع سوريا ، الا باحدى الطرق التالية :

أ ـ اخراج شرق الاردن من نطاق الانتداب الـــبريطاني ووضعه تحت الانتداب الفرنسي .

ب ـ اخراج سوريا من منطقة الانتداب الفرنسي ، وضمها الى منطقة الانتداب البريطاني .

ج ـ ابتكار نظام « انتداب ثنائي » تشترك فيه الحكومتان البريطانية والفرنسية .

د ـ رفع الانتدابين عن البلدين ، في وقت واحد .

ولا حاجة الى البيان ، ان كل ذلك كان يخالف الاتفاق الذي توصلت اليه بريطانيا وفرنسا لضمان مصالحهما وتأمين مطامعهما ، بعد مفاوضات ومساومات شاقة ، استمرت خمسة اعوام ..

هذا هو السبب الاصلي والاساسي ، في قيام « دولة » في شرق الاردن ، وبقائها منفصلة عن سوريا وعن سائر البلادالعربية الى الآن .

ان انكار هذه الحقيقة يكون بمثابة انكار وجود الشمس في رائعة النهار .

***

ومما لا شك فيه ان مجيء « عبد الله بن الحسين » الى عمان ،

وتربعه على عرش الحكم في شرق الاردن – في الظروف التي ذكرتها آنفاً – قد ساعد الانكليز مساعدة كبيرة على تنفيذ الخطط التي رسموها وتحقيق الاغراض التي استهدفوها ...

في الواقع ان الملك عبدالله لم ينقطع عن اعتبار الاردن جزءاً من سوريا ، وظل يحلم بتولي عرش البلاد السورية بأجمعها ، بعد ان قطع الامل من عرش العراق ، وبعد أن أخذ من المستر تشرشل – الذي كان وزيراً للمستعمرات – ما يشبه الوعد بمساعدته على تولي عرش سوريا ، « اذا عمل على توطيد الامن في البلاد التي تولى أمورها ، ولم يقم بأعمال تستوجب تخوّف الفرنسيين منه .. »

إنه بذل جهوداً كبيرة في هذا السبيل . وضاعف جهوده ودعاياته – بوجه خاص – عقب زوال الانتداب الفرنسي من سورية.

ولكن رجال الحركات الوطنية هناك ، كانوا قد عرفوا طباعه حق المعرفة ، واختبروا نزعاته بصورة فعلية ، في مناسبات عديدة ، وفي اوقات مختلفة ، فصاروا يعتقدون بأن توليه الحكم في سورية ، يؤدي الى رجوع البلاد الى الوراء ، في جميع الامور الداخلية والخارجية .

ولذلك لم يلتفتوا الى دعاياته ، وعارضوا مشروعاته ...على الرغم من ايمانهم بالوحدة العربية ، وتشوقهم الى تحقيقها ، ولو بصورة تدريجية ...

***

لقد دخلت أحوال المملكة الاردنية في طور جديد ، بعد

كوارث فلسطين الأخيرة وذلك بسبب انضمام « الضفة الغربية » اليها ..

ان هذا الجزء الجديد من المملكة كان أرقى بكثير من جزئها القديم ، من جميع الوجوه الثقافية والاجتماعية والسياسية . كان يعد من البلاد العربية الراقية التي انتشر فيها التعليم الى حد كبير ، و كثر فيها المثقفون والمجاهدون . فكان من الطبيعي ان تتغير اوضاع الاردن ، بعد انضمام سكان هذه البلاد الى المملكة واشتراكهم في تنظيم وتوجيه امورها الادارية والسياسية والفكرية . ولا سيما ، انهم كانوا قد تعودوا الجهاد والكفاح منذ مدة غير قصيرة ، وصارعوا أهوال الصهيونية عن كثب ، واصبحوا يلمسون خطر الطغيان الصهيوني المستمر ، واتجاهه القادم ، لمس اليدين .

وكانوا قد عرفوا ان المملكة الاردنية – بضفتيها الغربية والشرقية – اكثر البلاد العربية تعرضاً لهذا الخطر ، وأقلها قدرة على دفعه . فان نظرة واحدة الى طول الحدود القائمة بينها وبين اسرائيل ، مع ملاحظة قلة عدد سكانها – حتى بعد انضمام الضفة الغربية اليها – وضآلة مواردها المالية – التي لا تزال تجعل حكومتها مفتقرة الى المنحة البريطانية لسد عجز ميزانيتها الاعتيادية – ... كانت كافية لاظهار هذه الحقيقة الى العيان .

ولذلك ، صار المفكرون في ضفتي المملكة يرون ان اسرع ما يجب اتخاذه من التدابير لمعالجة هذا الوضع الشاذ ، ومكافحة هذا الخطر الداهم ... هو توحيد الاردن مع العراق ، ليشترك

اشتراكاً مباشراً في مقاومة الخطر ومكافحته . . بكل ما لديه من ثروة بشرية ومالية .

وكانوا يعتقدون – في الوقت نفسه – ان اتحاد الاردن مع العراق ، ما كان ينطوي على شيء من المحاذير التي كانت تذكر عندما جرت بعض المحاولات لتوحيد سوريا مع العراق . لأن معارضي ذلك الاتحاد كانوا يستندون عندئذ الى بعض الحجج المنطقية التي يمكن ان تتلخص بما يلي :

ان العراق مقيد بمعاهدة مع الحكومة البريطانية ، مع ان سوريا ليست مقيدة بأية معاهدة مع دولة من الدول .

« ثم ان نظام الحكم في سوريا جمهوري ، في حين انه في العراق ملكي .

« وفضلاً عن ذلك ، فان الدستور العراقي – ولا سيما بعد تعديله الأخير ، في عهد الوصاية ، وتحت ظروف شاذة – اعطى العرشَ سلطات خطيرة ، لا تأتلف مع مبادىء الديمقراطية الحقيقية .

« فلا يجوز أن تتحد سوريا مع العراق ، ما دامت أحوال المملكة العراقية باقية على ما هي عليه الآن . »

ومن بديهيات الامور ان هذه المحاذير – التي كانت تذكر لمعارضة اتحاد سوريا مع العراق – لم تكن واردة على الاطلاق بالنسبة الى اتحاد الاردن مع العراق .

لأن احوال المملكتين لا يختلف بعضهما عن البعض الآخر من الوجوه المذكورة آنفاً :

فان الأردن مقيد بمعاهدة مع بريطانيا ، مثل العراق، ونظام الحكم فيه ملكي ، كما في العراق ، وفضلاً عن ذلك كله ، فأن الاسرة المالكة في الاردن هاشمية ، كما في العراق .

لذلك كله ، انتشرت هذه الفكرة في المملكة الاردنية انتشاراً كبيراً ، واخذت تتغلغل بين جميع طبقات الشعب ، وتقوّت بوجه خاص خلال ازمة العرش التي طالت وتعقدت كثيراً بعد مقتل الملك عبد الله ..

حتى ان البعض صاروا يزعمون ان الأزمة المذكورة كانت فرصة ذهبية ، اتاحتها الاقدار للبلاد ، لتسهيل تحقيق هذا الاتحاد . .

ولكن ... في الوقت الذي كانت تنتشر فيه فكرة الاتحاد مع العراق – بهذه الصورة – داخل المملكة الاردنية ، قامت حركة معارضة لها في محافل بعض البلاد العربية الاخرى . اشتركت في هذه المعارضة جهات وهيئات عديدة ، رسمية وغير رسمية ، وتوسلت بوسائل متنوعة ، سرية وعلنية ، فاستطاعت في آخر الامر ، ان تخلص عرش الاردن من الازمات التي انتابته ، وان تقضي على حركة اتحاد الاردن مع العراق .

وكان بين الوسائل التي توسلت اليها المعارضة للوصول الى هذا الغرض ، الاستعانة ببعض الآراء السياسية التي كانت تحاول البرهنة على أضرار الحركات الاتحادية في الظروف الحالية ، وكان أهم هذه الآراء يحوم حول « ضرورة حفظ التوازن بين الدول العربية »

صار المعارضون يقولون : « ان اتحاد الاردن مع العراق ايضاً يخالف مصالح العرب العامة ؛ لانه يقوي الهاشميين ، ويغضب السعوديين ، فيختل التوازن القائم بين الدول العربية الآن ... »

ان هذه النظرية – نظرية التوازن بين الدول العربية – التي كانت تجول وتصول في دهاليز جامعة الدول العربية ومحافلها منذ عدة سنوات ، انتعشت خلال أزمة الاردن ، وقامت بدور فعال في توجيه الامور ...

وفضلاً عن ذلك ، وَلّدت عدة آراء ونظريات فرعية ، تعمل معها لتوجيه الامور نحو نفس الغاية :

« الاتحاد يجب أن يكون شاملاً لجميع الدول العربية ، ولا يكون مقتصراً على البعض منها ... »

« خير للشعوب العربية أن تسعى الى التحرر من قيود المعاهدات والاحتلالات ، قبل ان تفكر في الاتحادات .. »

« ان ابقاء ما كان على ما كان ، هو أحسن الحلول بوجه عام .. »

ان هذه الفكرة الأخيرة – بوجه خاص – وجدت هوىً قوياً في نفوس معظم ساسة الدول العربية ، وساعدت – لذلك – مساعدة كبيرة ، على حل ازمة العرش في الاردن ، وعلى بقاء المملكة الاردنية على قيد الحياة .

٣

بعد ان انتهيت من استعراض هذه الوقائع التاريخية التي تعود

الى الماضي القريب ... ولا سيما بعد ان قصصت قصة المملكة الاردنية بخطوطها الاساسية ، ووصلت الى الفصل الاخير منها ، لا أستطيع أن أمنع نفسي مـــن إثارة بعض الاسئلة ، ومن الدعوة الى التأمل فيها تأملاً جدياً ...

فأتساءل : ماذا كان يحدث ... لو ان الآراء والنظريات التي ذكرتها آنفاً ، خلال بحثي عن ازمة الاردن الاخيرة ، ظهرت على مسرح السياسة السورية ، فسيطرت على تفكير المجـــاهدين ووجهت اعمالهم ، قبل ثلاثة عقود من السنين ؟

ماذا كان يحدث اذ ذاك ، والى مـــاذا كانت تؤول حالة سوريا الآن ؟

ماذا كان يحدث ، لو قيل لاهل حلب قبـل سنة ١٩٢٤ ، ولأهل اللاذقية والسويداء قبل سنة ١٩٣٥ : « لا تفكروا في الاتحاد ، قبل ان تتخلصوا من الاحتلال والانتداب .. »

ماذا كان يحدث ، لو تبنى زعماء الثورات السورية أمثـال هذه الآراء والنظريات ، وعملوا بها ؟

ماذا كان يحدث ، لو لم تتصل ثورة الشيخ صالح العلي في جبل العلويين بحلب ودمشق ؟

ولو قامت ثورة ابراهيم هنانو باسم حلب وحدها ، لا باسم سوريا بأجمعها ..؟

ولو انحصرت ثورة سلطان الاطرش داخل حـــدود جبل الدروز ، ولم تسر الى غوطة دمشق ، وجبال حمص وحماه .. ؟

وفي الأخير ، لو لم يشمل الفصل الختامي من الثورات السورية

جميع انحاء البلاد ، من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب.. ولم تقم حملات الاصطدام مع الجيوش الفرنسية والهجوم على ثكناتها ، في دمشق ، وحماه ، وحلب ، والسويداء .. في وقت واحد ؟

ماذا كان يحدث اذ ذاك ، والى ماذا كانت تنتهي حـــالة سوريا اليوم ؟

إني .. عندما افكر في كل ذلك ، أقول ، بدون تردد :

كان من حسن حظ الشعب السوري والامة العربية ان أمثال هذه الآراء والنظريات – من نظرية « لا اتحاد قبـل التحرر » ، الى دستور « ابقاء ما كان على ما كان » – لم تستولِ على الأذهان، في تلك الأزمان ..

وأعتقد ان أحداً لا يخالفني في هذا الحـــكم ، إلا إذا استطاع أن يقول :

يا ليت لم تتحد دول حلب ودمشق وجبل الدروز وجبـل العلويين .. ويا ليت بقيت تلك الدول قائمة الى الآن .. مثل توأمتها « المملكة الاردنية » ... !

من حائل الى العسير
ومن جدة الى الظهران

ان حركات «التوحد والتوحيد» التي حدثت بين الاقطار العربية في الماضي القريب ، لم تنحصر بما ذكرناه آنفاً عن سوريا ، بل حدث ما يماثل ذلك في الجزيرة العربية ايضاً . وارى من المفيد أن نتذكر تلك الاحداث هذه الأيام:

١

كانت أراضي المملكة العربية السعودية الحالية - في بداية العقد الثالث من القرن الحاضر - منقسمة الى أربع وحدات سياسية ، مستقلة بعضها عن بعض ، استقلالاً تاماً :

إمارة آل الرشيد : في القسم الشمالي من نجد
سلطنة آل السعود : في الاقسام الاخرى من نجد
المملكة العربية الهاشمية : في الحجاز
إمارة الادريسي : في العسير

غير ان « عبد العزيز بن السعود » قام بعدة حركات عسكرية

قضت على هذه الاوضاع السياسية ، خلال عشر سنوات :

اولاً : سنة ١٩٢١ – استولى على « حائل » ، وقضى على امارة آل الرشيد ، ووحد بذلك جميع اقسام نجد .

ثم ، – سنة ١٩٢٥ – استولى على الحجاز ، وقضى بذلك على المملكة العربية الهاشمية .

وفي سنة ١٩٢١ كان قداستولى على القسم الشمالي من العسير ؛ وسنة ١٩٢٦ ادخل العسير تحت حمايته ؛ وفي سنة ١٩٣٠ استولى على سائر اقسامه، وقضى بذلك على إمارة الادريسي ، وضم القطر المذكور أيضاً الى ملكه .

« والمملكة العربية السعودية » الحالية تكونت بهذه الصورة من اتحاد واندماج « امارتين وسلطنة ومملكة » ، وصارت تمتد لذلك من حائل الى العسير ، ومن جدّة الى الظهران ..

لقد انتقلت الاحداث والوقائع التي ذكرتها آنفاً الى ذمة التاريخ ؛ لانه قد مضى على الأولى منها ثلث قرن ، والاخيرة منها ربع قرن ؛ ولذلك أصبح في استطاعة الباحث الآن ان يتأمل فيها وفي نتائجها ، بالحياد الفكري الذي تتطلبه الأبحاث التاريخية ، وأن يصدر حكماً لها أو عليها ، على ضوء النتائج التي ظهرت الى الآن .

فلنفكر اذن : هل كان توحيد البلاد الأربعة المذكورة ، وادماجها في دولة واحدة ، موافقاً لمصلحة الامة العربية ، ام مخالفاً لها ؟ .

هل اصبحت تلك البلاد أحسن حالاً ، مما كانت عليه قبلاً ،

أم أسوأ حالاً ؟

وبالتالي ، هل يجب ان نقول : « نِعْمَ ما حـــدث » ، ام نقول : « يا ليت لم تتوحد تلك البلاد .. » ؟ .

أظن أن الشطر الثاني من السؤال الاخير ، يصدم الأذهان ، فلا يترك أمامها مجالاً للتردد في الجواب . والجواب الذي يتبادر اليها على الفور ، يكون : « كلا ! لا يسوغ لنا أن نقـــول : يا ليت لم تتحد تلك البلاد » .

اذ من بديهيات الامور ، انه لو كان هناك أربع دول عوضاً عن هذه الدولة الواحدة ، لزادت عوامل التنازع والاختلاف في السياسة العربية ، كما زاد عدد الوفود في مجلس جامعـــة الدول العربية ؛ ولأصبحت الامور فيها أشدّ تعقداً واكثر تبلبلاً مما هو عليه الآن ، بدرجات .

وفضلاً عن ذلك ، لبلغ عدد أصوات دول الجزيرة في مجلس الجامعة الخمسة ، وتساوى مع أصوات مصر والعراق وسوريا ولبنان والاردن ، ولوجد « خصوم الاتحاد » في ذلك « حجة » أقوى بكثير من حججهم الحالية ، لتأييد زعمهم القائل بأن « الاتحاد بين الدول العربية يعرقل تقدمها « بل يرجع بها الى الوراء » ..

* * *

ولكني لا أرى من الموافق ان نقف عند هذا الرأي الذي يتبادر الى الأذهان بهذه الصورة على الفور ، — مهما بدا وجيهاً ومنطقياً — ؛ بل ارى مـــن الضروري ان ندرس الأمر بشيء من التوسع والتعمق ، ونستعرض الوقائع مع مقدماتها ونتائجها

لنستطيع أن نبني حكمنا في هذا الامر على اساس « الموازنة بين النتائج الحسنة والنتائج السيئة موازنة دقيقة . »

فلنبحث اذن : ماذا كان تأثير الوقائع في كل قطر من الاقطار المذكورة من ناحية ، وفي سائر البلاد العربية من ناحية اخرى ؟ وماذا كانت النتائج التي ظهرت ، اولاً عقب الوقائع ، ثم بمرور الزمان ؟

٢

ان استيلاء ابن السعود على إمارة آل الرشيد ، لم يولد رد فعل يستحق الذكر والاهتمام ، لا في « نجد » نفسه ، ولا في سائر البلاد العربية . لان الامارة المذكورة كانت « شبه منقطعة » عن العالم الخارجي ، بسبب وضعها الجغرافي المعلوم ، كما انها كانت بقيت خارج نطاق الحركات القومية التي قامت في العالم العربي ، بسبب ولاء آل الرشيد للدولة العثمانية ، وتبعيتهم لها .

وفضلاً عن ذلك ، فان ابن سعود اتخذ حيال آل الرشيد سياسة حكيمة : لانه — بعد أن أقصاهم عن دار حكمهم — عاملهم معاملة حسنة ، وضمن لجميع افرادهم العيشة الهنيئة ، ولذلك هدأت الاحوال واستتب الأمن في نجد بسرعة ؛ وانتهت بذلك المنازعات التي كانت مستحكمة بين الاسرتين منذ اجيال عديدة .

***

ونستطيع ان نقول نفس الشيء بالنسبة الى إمارة العسير أيضاً : لأن « الادريسي » كان بعيداً عن التمتع بشعبية او عصبية ؛

كان قد استبد بالامر هناك ، – مستفيداً من بعض الظروف الطارئة – ولذلك لم يستأ الناس من زوال تلك الامارة ، لا في العسير نفسها ولا في البلاد العربية الاخرى .

غير ان استيلاء ابن السعود على العسير أحدث بينه وبين ملك اليمن الامام يحيى مشكلات عديدة وأزمات شديدة . وذلك لان البلاد المعروفة باسم العسير ، كانت متاخمة لليمن . فكان من الطبيعي ان لا ينظر الامام يحيى بعين الارتياح ، الى دخول تلك البلاد تحت حكم السعوديين ، وانفصالها بذلك عن اليمن بصورة نهائية . وكان من الطبيعي – بوجه أخص – ان تحدث خلافات شديدة بين الملكين ، حول تحديد حدود البلدين .

وقد أدت هـــذه الخلافات الى قيام حرب بين البلدين سنة ١٩٣٤ . إلا ان هذه الحرب انتهت بعد مدة وجيزة ، بعقد صلح بين الملك عبد العزيز بن السعود وبين الامام يحيى .

وبعد ذلك التاريخ ، لم يحدث حادث يستحق الذكر بين المملكتين .

ولكن... عند هجوم الجيوش السعودية على المملكة العربية الهاشمية في الاراضي الحجازية ، اخذت الامور شكلاً يختلف عما ذكرناه آنفاً كل الاختلاف ، وذلك لاسباب عديدة ومتنوعة :

اولاً – ان الحجاز لم يكن من البلاد المنقطعة او الـ « شبه المنقطعة » عن العالم ، كما كانت الحائل والعسير ؛ بـــل كان – بعكس ذلك – اشد بلاد العالم ارتباطاً بالخارج ، بروابط مادية ومعنوية كثيرة وقوية : كان يأتي كل سنة الى الحرمـــين

الشريفين، قوافل كبيرة من الحجاج، من مختلف البلاد الاسلامية. وكانت بعض الجماعات من اهالي تلك البلاد المختلفة تختار الاقامة في « مكة المكرمة » و « المدينة المنورة » ، بغيـــة نيل « ثواب الجوار » . وكان كل سنة يُرسل الى الحجاز « محمل » رسمي من مصر والشام ، مع هدايا وعطايا متنوعة . وفضلاً عن ذلك كله ، كان في الحجاز كثير من الاراضي والعقارات المملوكة لاشخاص يقيمون خارج البلاد ، أو موقوفة لاسر وجماعات منبثة في مختلف اقطار العالم الاسلامي . مقابل ذلك كان في مختلف البلاد العربية والاسلامية ، اراضٍ وعقارات موقوفة للحرمين ، او مجاوري الحرمين ...

فكان من الطبيعي – نظراً لكل ما سبق – أن تثير وقائع الحجاز ، اهتماماً كبيراً في كثير من البلاد العربية والاسلامية .

ثانياً – ان الملك حسين كان قد احرز مكانة رفيعة جداً، خلال حياته الطويلة .

انه كان عاهل الشرفاء المنحدرين من نسل النبي العربي؛ وكان قد شغل منصب «امارة مكة المكرمة» قبل ان يصبح ملكاً على الحجاز . وكانت الامارة المذكورة تتمتع بمكانة رفيعة في العالم الاسلامي، منذ عصور طويلة، وفي العهد العثماني كانت تعتبر من ارقى مناصب الدولة : إذ كانت « التشريفات الرسمية تذكر «امير مكة المكرمة» مع الصدر الاعظم وخديو مصر »، وتعتبره متساوياً معهما في الدرجة . وكان تنصيبه يجري بمراسم خاصة ، تشبه مراسم تنصيب الصدر الاعظم وشيخ الاسلام .

والملك حسين كان اضاف الى هذه المكانة الدينية التاريخية ، مكانة دنيوية جديدة ، أحرزها بفضل جهاده السياسي : فان توليه الدفاع عن حقوق العرب واقدامه على اعلان الثورة العربيـــة ، واستمراره في قيادتها بعزم وثبات ... اكسبته مكانة معنوية هائلة الارتفاع ، جعلته رمزاً لروح القومية العربية الجديدة .

وفضلاً عن ذلك ، كان قد اكتسب مكانة دولية لأن الدولة التي انشأها كانت استقلت استقلالاً تاماً . وكانت – عند انتهاء الحرب العالمية الاولى – الدولة العربية الوحيدة المعترف بها دولياً . كما أنها اعتبرت من الدول المتحالفة المنتصرة ، واصبحت صاحبة مقعد في مؤتمر الصلح الذي انعقد في قصر فرساي ..

ثم ان الجهود التي بذلها ، والكياسة التي اظهرها ابنه وممثله فيصل ، خلال اتصالاته مع عظماء السياسة – من ويلسون الى لويد جورج وكليمنصو – ، زادت مكانته ارتفاعاً ، واكسبته شهرة عالمية .

ولهذه الاسباب ، كان من الطبيعي أن يعطف عليه الرأي العام العربي عطفاً عميقاً ، ويستاء من هجوم الجيوش السعودية على مملكته استياء شديداً .

ثالثاً – ان ابن السعود كان وهابياً . والقوات الهاجمة عـــلى الحجاز ، كانت من الاخوان الوهابيين .

والحركة الوهابية كانت قد اكتسبت سمعة سيئة بين الناس في كثير من البلاد العربية والأسلامية منذ مدة طويلة .

لأن غزوات الثورة الوهابية الاولى كانت قد تركت في النفوس

آثاراً وذكريات سيئة . كما ان اشتراك الجيوش المصرية في محاربة الوهابيين في الجزيرة العربية – تحت قيادة ابراهيم باشا – ، صار سبباً لانتشار أخبار تلك الغزوات بين الناس على نطاق واسع ، وصارت تلك الاخبار تنتقل من جيل الى جيل عن طريق الروايات بطبيعة الحال ، وكان الناس لا يعرفون شيئاً عن الوهابية ، سوى انها تحرم التدخين ، وتعتبر زيارة الاضرحة والتشفع بالاولياء نوعاً من الوثنية ، وتقول بوجوب هدم الأضرحة للقضاء على هذه الوثنية . وبما ان كل ذلك يخالف بعض العادات الشائعة والتقاليد الراسخة في كثير من البلاد العربية والاسلامية صار الناس يمقتون الوهابية ، ويتخوفون منها .

وعندما بدأ هجوم السعوديين على الحجاز ، كان من الطبيعي أن ترتبط هذه الهجمات الجديدة بروايات الغارات القديمة ، وتجعل الناس يتخوفون مما تصير اليه الامور ، اذا انتصر الوهابيون وسيطروا على الحرمين ، فأصبحوا مطلقي التصرف في القبور والأضرحة القائمة في مختلف المدن الحجازية ...

ان اجتماع هذه العوامل الثلاثة التي شرحتها آنفاً ، اوجد في اكثر البلاد العربية استياءً شديداً من مهاجمات السعوديين ، وعطفاً عميقاً على الملك حسين ، وتخوفاً بالغاً من مصير الحجاز ومستقبل شؤون « الحج الى بيت الله الحرام » .

وكل ذلك ادى الى « تطوّع » جماعات من المجاهدين والشبان المتحمسين – في بعض البلاد العربية – للالتحاق بالقوات الحجازية ، بغية محاربة القوات السعودية .

***

ان هذه التأثرات ، صارت أشدّ ظهوراً في العراق منها في سائر البلاد العربية ، وذلك للأسباب التالية :

اولاً : ان العراق كان متاخماً للبلاد السعودية بحدود طويلة جداً ، تمتد في أراض صحراوية تماماً . وكان ينتجع في طرفي تلك الحدود عشائر رحالة ، تتنازع وتتخاصم لأتفه الاسباب . وكثيراً ما كانت العشائر العراقية تتعرض لغارات عنيفة من العشائر النجدية ، وكثيراً ما كانت تتكرر الغارات عندما تكون الحكومة العراقية في مواقف حرجة .

فكان من الطبيعي أن يتخوف الناس ، وتتخوف الحكومة من « اشتداد سواعد الوهابيين » .

ثانياً : ان غارات الوهابيين القديمة كانت قد أحدثت أشد وأعمق آثارها في العراق ؛ لانها كانت وصلت الى النجف وكربلاء ، وأدت الى نهب وبعثرة الخزائن الموجودة في أضرحة الأماكن المقدسة هناك .

فكان من الطبيعي ان يتخوف اهل العراق من تكرر تلك الغارات على الاماكن المقدسة .

ثالثاً : كان العراق قد أصبح الملاذ الرسمي للفكرة العربية ، بعد انقراض الحكم الوطني في سوريا . فكان من الطبيعي ان يتأثر الناس وتتأثر الحكومة تأثراً شديداً من الهجمات التي يجابهها « ابو الثورة العربية » الملك حسين . ولا سيما ، انه كان والد فيصل الأول ، ملك العراق وزعيمه القومي .

ولهذه الاسباب كلها ، رأت الحكومة العراقية ان تهتم

بالقضية بصورة رسمية ، وان تطلب تدخل الحكومة البريطانية .

ومن المفيد ان نستعرض هنا بعض الوثائق الرسمية لنطلع على انواع المخاوف التي كانت تساور العراقيين والحكومة العراقية في هذه القضية ، بصورة تفصيلية :

قد جاء في القرار الذي اتخـــذه مجلس الوزراء – في جلسته المنعقدة في ٢٨ ايلول سنة ١٩٢٤ – ما يلي نصه :

« ان الغزوات المستمرة التي تقوم بها قـــوات ابن السعود لتوسيع نفوذ الوهابية في مناطق الحكومات العربية ، والاخلال بالموازنة الحالية الموجودة في جزيرة العرب ، واستيلاء عظمـــة السعود على الحرمين الشريفين ، مما يأتي بأضرار بالغة من الجهة الدينية والسياسية والاقتصادية على العراق . وعليه قرر مجلس الوزراء ان يطلب الى المعتمد السامي ببيان التدابير المتخذة لازالة هـــذه الأضرار في الحال والاستقبال . . . »

ثم جاء في القرار الذي اتخـذه المجلس المذكور ، بعد ذلك ، في ٢٥ تشرين الأول سنة ١٩٢٤ – ما يلي نصه :

« ان استيلاء هذا السلطان على البيت الحرام سوف يـؤدي الى عدم امكان أداء فريضة الحج ، ويخل بالموازنـة بين البـــلاد العربيـــة ، ويضطر في نهاية الامر العشائر القاطنة ما بـين سوريا والعراق وعلى طول الفرات الى اعتناق المذهب الوهابي ، تخلصاً من تجاوزات دعاته وتعدياتهم . . . »

يتبين من هذه النصوص : ان الحكومة العراقية كانت تعتقد بان استيلاء القوات السعودية على الحجاز سوف يؤدي – حتماً –

الى انقطاع سبل الحج على المسلمين ، وسوف يضطر العشائر العراقية والسورية الى اعتناق المذهب الوهابي ، وسوف يعود على العراق بأضرار بالغة ، من الوجوه الدينية والسياسية والاقتصادية .

فهل كانت الحكومة العراقية مصيبة في هذه التنبؤات ؟

ان الوقائع ، ستعطي الجواب القاطع على هذا السؤال .

٣

واصلت القوات السعودية حركاتها العسكرية ، بشدة وسرعة في هذا الجو المكهرب بشتى الهواجس والمخاوف ، وانتصرت على القوات الحجازية ، انتصاراً حاسماً ، بنهاية سنة ١٩٢٥ .

وبعد أشهر قليلة من بدء الحركات الحربية ، اضطر الملك حسين الى التنازل عن العرش لنجله الاكبر علي ، ولكن الملك علي لم يستطع أن يدافع عن جدة مدة طويلة ؛ فاضطر الى مغادرة الحجاز ، والالتجاء الى العراق ، حيث أخوه فيصل الاول .

وبهذه الصورة ، أصبح العالم العربي أمام «أمر واقع» ، تقرر بقوة السلاح : زالت المملكة العربية الهاشمية من الوجود ، ودخل الحجاز تحت حكم آل السعود .

* * *

بقي علينا أن نتتبع سير الحوادث ، لنرى ما ترتب على هذا « الأمر الواقع » من نتائج وآثار ، بمرور الزمان :

من بديهيات الامور ان الهواجس والمخاوف التي شرحتها آنفاً ، ما كان يمكن ان تزول ، بمجرد انتهاء الحركات الحربية .

والمشاكل المعقدة التي تنجم – بطبيعة الحال – عن تغير « الحكم والحاكمين » ما كان يمكن ان تعالج في جملة واحدة ، ولا سيما عندما يكون الحكم مؤسساً على أساس « النظام الملكي المطلق »، الذي يكون فيه كل شيء منوطاً بمشيئة الملك وأوامره – كما كان في الحجاز وفي نجد ..

ولذلك تتابعت الاحداث ، وتعددت المشاكل ، وتعقدت الامور .. ولكن هذه الاحوال لم تستمر مدة طويلة ، بل عادت الامور الى مجاريها الطبيعية ، وزالت المخاوف التي كانت تساور نفوس الكثيرين ، واستتب الأمن في جميع نواحي البلاد، خلال بضع سنوات :

لم تنقطع سبل الحج على المسلمين ، بل عادت الى ما كانت عليه قبلاً ، – بعد بعض الوقائع العارضة – ، ثم صارت احسن تنظيماً من ذي قبل ..

والعشائر العراقية السورية ، لم تضطر الى تغيير مذهبها والى اعتناق المذهب الوهابي ، بل استفادت من انتهاء المنازعات التي كانت تتوالى بينها وبين العشائر النجدية ، بدون انقطاع .

واستتب الأمن في البوادي احسن استتباب ، خلال بضع سنوات .

وخلاصة القول : لم يحدث شيء مما كان يخشاه الناس بوجه عام ، ومما كانت تتخوف منه الحكومة العراقية بوجه خاص..

والفضل في هذه النتيجة يعود الى الكياسة السياسية التي اتصف بها الملك عبد العزيز ابن السعود ، والوطنية الواعية التي امتاز بها

الملك فيصل الاول :

لان الملك ابن السعود لم يتخذ انتصاراته الحربية وسيلة لنشر « المذهب الوهابي » ، او لتطبيق أحكام ذلك المذهب في الحجاز بل انصرف الى توطيد أركان ملكه الجديد ، واتخذ شتى التدابير لنشر ألوية الامن على جميع انحاء المملكة .

والملك فيصل ، لم يتردد في تقديم المصالح القومية على الاعتبارات العائلية « وترك الماضي جانباً ، ومد لابن السعود يد الاخوة والمصافاة، قائلاً « كلنا في خدمة الامة العربية ». وسهل بذلك عقد معاهدة الأخاء التي حددت الحدود بين المملكتين بروح التسامح المتبادل ، وأزالت بذلك جميع أسباب الخلاف والجفاء.

وفي الواقع ان عبدالله بن الحسين ، — امير شرق الاردن اذ ذاك — ، لم يقتد بأخيه فيصل في هذا المضمار . وسلك مسلكاً يخالف الكياسة السياسية ، والوطنية الواعية في وقت واحد .

لأنه كان موتوراً من ابن السعود ، منذ الهزيمة الشنيعة التي بلي بها في واقعة تربة ، ثم انه كان شديد الانانية لا يستطيع ان يرتفع في تفكيره وفي اعماله ، فوق مصالحه ونزواته الشخصية . فلم يستطع أن يسلم بالامر الواقع في قضية الحجاز ، ولذلك سبب حدوث مشاكل عديدة ، وازمات شديدة، ولم يساعد على تصفية الأمور بسرعة .

ومع كل ذلك ، استتب الأمن في البادية على أحسن حال — بعد مرور بضع سنوات ، حتى في الحدود الاردنية السعودية .

٤

بعد الانتهاء من استعراض هذه الوقائع – بخطوطها الرئيسية والتذكير بها – ، اعود الى الاسئلة التي وضعتها في بداية هذا البحث ، والى الجواب الذي أشرت اليه هناك . . . ولا اتردد في تأييد ذلك الجواب .

فأقول : لا شك ان الحركات التوحيدية التي قام بها الملك عبد العزيز بن السعود ، انتهت الى أوضاع موافقة لمصلحة الامة العربية .

أقول ذلك ، مع كل ما أكنه من الاجلال والتعظيم لذكرى الملك حسين بن علي .

أقول ذلك ، لأني انظر الى القضايا القومية بنظرات مجردة عن النوازع الشخصية ، وأضع مصلحة القومية العربية فوق كل اعتبار .

اني اعتقد بان الملك حسين أدى رسالة تاريخية هامة ، فدخل في زمرة الخالدين في تاريخ بعث الامة العربية .

لأنه كان أول من دعم « الفكرة العربية » بقوة عسكرية ، واقدم على اعلان « الثورة العربية » في ظروف خطيرة ؛ وأدى بذلك خدمة جليلة الى حركات البعث العربي والنهضة العربية .

ومع ذلك ، لا استطيع ان أقول : « يا ليته بقي على رأس ملكه ، حتى مماته » ولا ان اقول : « ليت المملكة التي أسسها ، بقيت قائمة الى الآن . . »

بل اسمح لنفسي ، بأن اقـول – مع علمي بان قولي هـــذا سيبدو في منتهى الغرابة :

ان ما حدث على يد عبد العزيز بن السعود ، كان بمثابة تتمة لأعمال حسين بن علي ..

لأن ذلك كان بمثابـة خطوة من الخطوات الضرورية ، للسير في سبيل تحقيق الوحدة العربية ...

ولا شك في ان « الوحدة » كانت غاية آمال الثورة الـــتي اضرمها ، والنهضة التي اعلنها الملك حسين .

استدراك ومناقشة

قد يقول لي قائل – بعد ان ينتهي من مطالعة ما كتبته آنفاً – :

– ولكنك نسيت أمراً هاماً : انك لم تذكر شيئاً عن الخلاف القائم بين السياسة الهاشمية والسياسة السعودية ... هذا الخلاف الذي يلعب دوراً هاما في بلبلة الامور في جامعة الدول العربية ... اليس هو من نتائج استيلاء ابن السعود على الحجاز ؟

وأما أنا ، فأقول ، رداً على هذا السؤال :

أولاً ، اني لا أسلم بوجود سياسة هاشمية ، وأعتقد ان الساسة والكتاب الذين اعتقدوا بوجود مثل هذه السياسة ، وبنوا أعمالهم و كتاباتهم على هذا الاعتقاد ، كانوا على خطأ عظيم ...

فان افراد الاسرة الهاشمية الذين تولوا الملك في ظروف مختلفة لا يشبهون بعضهم بعضاً ، لا في طراز التفكير ، ولا في النزعات الشخصية ، ولا في السلوك السياسي .. الملك فيصل ، الملك غازي ، الملك عبد الله ، الوصي عبد الاله .. كل واحد من هؤلاء

نسيج وحده ، يختلف عن غيره كل الاختلاف .

ان المسؤول الأول والاكبر عن شيوع « التنافس بين الأسرتين » كان الملك عبد الله . ولكن من يعرف طباعه ، ومن يتتبع أعماله ، يضطر الى التسليم بانه ما كان يمكن ان يكون آلة خير ومصافاة ، في اية حالة من الاحوال .

أبرز صفاته ، كانت الانانية المطلقة التي لا تقف عند حد ، فلا تلتفت الى الصالح العام ، مع الطموح الشديد الذي لا يقترن بالتفكير السليم ولا يستند الى الهمة والنشاط . وشخص هذه طباعه ، لا بد ان يكون مصدر خلاف ومبعث مشاكل ... ... حتى لو بقيت المملكة الحجازية قائمة الى الآن . حتى ولو اصبحت جميع العروش العربية هاشمية ...

اني لا اقول ذلك اعتباطاً ، وانما أستند في قولي هذا الى وقائع وحقائق عديدة ...

اقرأوا ما كتبه في ما سماه « مذكراتي » ، لاحظوا ما قاله فيها عن والده الملك حسين ، واقرأوا ما كتبه عن اخيه فيصل ، ثم تذكروا السلوك الذي سلكه في قضية عرش العراق ... تتأكدوا من صحة ما قلته في هذا المضمار .

ان قضية « عرش العراق » ، بقيت الى الآن مجهولة لدى معظم الساسة ورجال القلم - على ما اعلم - ؛ ولذلك ارى من المفيد أن أشرحها هنا ، بهذه المناسبة ، ليطلع عليها من لم يكن قد اطلع عليها قبلاً ، ويتذكرها من كان عرفها ولكنه نسيها بمرور الزمان :

سنة ١٩٢١ ، بعد الأحداث التي تتابعت في سوريا ، وبعد الثورة التي قامت في العراق ، وبعد المشاورات والمفاوضات التي جرت في بغداد ولندن ، والقاهرة والقدس ... تقرر أن يطلب زعماء العراق من الملك حسين أن يرشح أحد انجاله لعرش العراق؛ كما رؤي من الموافق ان يرشح الملك حسين ابنه فيصل.. فيذهب فيصل بعد ذلك الى العراق ، ليعرّف نفسه الى الشعب ، ويشرح خططه للناس .. قبل أن يجري التصويت في أمر العرش .

ولكن « الأمير عبد الله » تألم من ذلك ، وامتنع عن ملاقاة اخيه فيصل عندما مرّ بمصر ، في طريقه الى الحجاز ؛ وأخذ يتظلم في كل مجالسه ، قائلًا : « عرش العراق حقي . أخي فيصل يريد ان يغتصبه مني . »

كان في تلك الآونة ، كثيرون من السوريين يلتجئون الى عمان ، وكثيرون من العراقيين يغادرون سوريا ويمرون بعمان ، في طريقهم الى مصر فالعراق . وكل هؤلاء ، عند ما يجتمعون بالأمير عبدالله ، كانوا يسمعون منه نفس النقرات :

« عرش العراق حقي .. فيصل يريد ان يغتصبه مني .. »

واستمر « الامير عبدالله » على تكرار هذه النقرات ، حتى بعد أن وصل فيصل الى العراق، وبعد أن بدأ جولاته الترشيحية في مختلف انحاء البلاد ..

وموقف « الامير عبدالله » في هذا الامر شاع في كل الجهات حتى ان الجرائد التركية صارت تنشر اخباره وتتخذه وسيلة لتشفي غلة صدرها من ثورة الحسين .

وانا – شخصياً – حاولت مرة أن أنبه «الامير» على فظاعة موقفه هذا : كنت عثرت على جريدة تركية تصدر في أنقره ، ورأيت فيها مقالة بعنوان ضخم طويل ، يشمل معظم حقـــول الصفحة : « أولاد حسين الخائن، أخذوا يتنازعون على عرش العراق»

وتقول الجريدة تحت هذا العنوان ، ما ملخصه :

« عندما ثار الشريف حسين على دولته المتبوعة ، ظن البعض أنه كان مدفوعاً في ثورته هذه بغايات قومية وطنية . ولكن هؤلاء كانوا على خطأ عظيم . وقد انجلت الحقيقة الآن لكل ذي عينين : بدأ نجلاه فيصل وعبدالله يتنازعان على عرش العراق » .

عندما قرأت المقالة قررت أن اكتب الى «الامير عبدالله»، فأرسلت اليه كتاباً الى عمان – ، بدأته بالاعتذار «عن اضطراري لمخاطبة سموه قبل أن أتشرف بمعرفته شخصياً » ، ثم قلت فيه :

اني كنت اسمع منذ مدة مـا تقولونه للسوريين والعراقيين الذين يزورونـكم في عمان ، عن عرش العراق ، وعن حقكم فيه ، وعن اغتصاب اخيكم فيصل لذلك العرش .. وكنت أتألم ألمـاً شديداً ، كلما فكرت في التأثير الذي تحدثه تصريحاتكم هذه في بيئات المجاهـدين الوطنيين في سوريا وفي العراق ؛ ولكن ألمي هذا ، وصل الى حده الأقصى عندما عثرت على جريدة تركية ، وقرأت فيها مقالة تحت عنوان « أولاد حسين الخـــائن أخذوا يتنازعون على عرش العراق » . اني أرسل اليكم الجريدة ،وأعتقد بأن مجرد الاطلاع على ما جـاء فيها ، يكفي لتفهيمـكم الواجب الذي يترتب عليكم في هذا الأمر .. »

ولكن ماذا فعل « عبد الله بن الحسين » ؟ هل كف عن تكرار نقراته ؟ كلا انه استمر على اعلان حقه في عرش العراق.. حتى بعد ان تمّ كل شيء، وجرى التصويت وأصبح فيصل ملكاً على العراق ، وأخذ يصارع المشاكل الداخلية والخارجية ، في سبيل تأسيس الحكم الوطني في تلك البلاد ..

ومما يذكره العارفون، ان الشيخ فؤاد الخطيب - بعد مرور عدة سنين على هذه الوقائع - كان القى بين يديه قصيدة في احد الاعياد ، مدحه فيها ، وعدّدَ « خصاله ومزاياه » ، وقال فيما قاله في سبيل مدحه :

« تنازل عن عرش العراق ... أكرم به من تنازل ! »

ولكن الامير عندما سمع هذا الكلام ، اندفع يصيح على الفور : « كلا .. لم اتنازل ! »

وكان ذلك امام جمع غفير من الحاضرين .. وبعد مرور سنوات على تتويج الملك فيصل .. أفلا يحق لي أن أكرر ما قلته آنفاً :

شخصٌ هذه طباعه واخلاقه .. وهذا مبلغ تقديره للمصالح العامة ، ولحقائق الامور... لايتأخر عن اثارة النزاع والخصام.. حتى بين افراد الاسرة الواحدة .

مزالق التشبيهات

تنال بعض الكلمات حظاً غريباً من الانتشار والذيوع، على الرغم من مخالفتها للحقائق ، وذلك بفضل ما تتضمنه من تشبيه طريف . لان امثال هذه التشبيهات ، كثيراً ما تبهر الابصار ، وتسحر الالباب ، منذ الوهلة الاولى ؛ ولذلك تشلّ نزعة البحث والاستقصاء في الاذهان ، فيسلم الذهن بها على الفور ، دون ان يرى لزوماً للتفكير في أمرها للتأكد من صحتها ، كأنها من القضايا البديهية التي لا تحتاج الى دليل وبرهان . اني سأسرد في الصحائف التالية ، مثالين على التشبيهات التي سببت انزلاق الكثيرين نحو الخطأ، في تفكيرهم السياسي ، حول القضايا العربية .

اصفار سعد زغلول

لقد روى يوماً الاستاذ عبد الرحمن عزام ، الأمين العام السابق لجامعة الدول العربية ، في احدى المجلات حديثاً كان جرى بينه وبين المغفور له سعد زغلول ، في أوائل عهد الوفد المصري :

عندما أراد عزام أن يتكلم عن الوحدة العربية ، قاطعه سعد زغلول بهذا السؤال : « إذا جمعت صفراً الى صفر ، فصفر ، ماذا تكون النتيجة ؟ » .

وهذه الكلمة ، بهذا المظهر الرياضي الحاسم ، أقنعت الكثيرين ، وصارت تتردد على ألسنة الساسة وأقلام الكتاب ، كأنها تعبر عن حقيقة بديهية ، بداهة القضايا الرياضية .

ومع انه قد مضى على تاريخ صدور هذه الكلمة من بين شفتي سعد زغلول – على رواية عزام – أكثر من ثلاثين عاماً ، فلا يزال الكثيرون يستندون اليها في تجريح فكرة الوحدة العربية وقضايا جامعة الدول العربية .

وقد قرأت قبل بضعة أشهر فقط ، في مقالة منشورة في

جريدة يومية ، بمناسبة حديث عن قضايا جامعة الدول العربية ، العبارات التالية :

« قد كان للمغفور له سعد زغلول رأي في هذا الصدد، أملته الخبرة والنظرة الصادقة والنفوذ الى اصول المسائل ، اذ قال « إذا جمعت صفراً إلى صفر ، إلى صفر ، فستكون النتيجة صفراً » .

وما دامت هذه الكلمة لا تزال تتردد على الالسن والاقلام بهذه الصورة ، يجدر بنا ان نجعلها موضوعاً لبحث جدّي ، لنرى مبلغ حظها من الصواب :هذا التشبيه الذي ذكره سعد زغلول، هل كان موافقاً لحقائق الامور ؟ وإذا كان موافقاً للحقائق التي كانت قائمة في عهد سعد زغلول ، ألا يزال يوافق الاحوال القائمة هذا اليوم ايضاً ؟

علينا ان ندرس ذلك بكل اهتمام ، دون ان نتأثر بالسلطة المعنوية التي يتمتع بها صاحب التشبيه ؛ لاننا نعرف ان العظماء لا يكونون ولا يمكن ان يكونوا عظماء في كل شيء ، بل انهم اذا اظهروا عبقرية خارقة في بعض الامور، فقد يتساوون مع سواد الناس في كثير من الامور ، حتى انهم ينزلقون الى اخطاء فادحة ايضاً في بعض الاحيان .

فلنفكر إذن : هل كان سعد زغلول مصيباً فيما قاله ؟ هل كان محقاً في اعتبار الشعوب العربية أصفاراً ؟ هل كانت مصر صفراً ، عندما ثارت ثورتها الخالدة ، وادهشت العالم بالاتحـــاد الرائع الذي شمل جميع طبقات الشعب من أفقر الفقراء الى أغنى الاغنياء ، ومن اصغر الموظفين الى اكـــبر الامراء ، وبروح

التضحية الهائلة التي جعلت الثوار يهجمون على الجيوش الانكليزية المجهزة بأفتك الأسلحة بزجاجات عادية ملئت بالرمال ؟

هل كانت مصر صفراً عندما هبت تلك الهبة التي اضطرت الانكليز الى اطلاق سراح سعد زغلول ورفاقه المجاهدين ؟

ان عظمة سعد انما نشأت من اعتماده على القوة الكامنة في الشعب ، ومن نجاحه في اظهار تلك القوة الكامنة باجلى مظاهرها. ولذلك اميل الى الجزم بانه عندما قال الكلمة التي رواها عزام ، لم يقصد مصر ، فلم يدخل مصر في عداد الاصفار .

ولكن هل كانت سوريا أيضاً صفراً ؟ سوريا التي كانت تغلي في تلك الايام كالمرجل لتأسيس حياة قومية جديدة ، سوريا التي قاومت جبروت الفرنسيين مقاومة عنيفة ، حتى اضطرتهم الى حشد مائة الف جندي ... هل كانت صفراً ، حقيقة ؟

والعراق ، الذي قام بثورتـــه الشاملة ، وكبّد الانكليز خسائر فادحة في الاموال والارواح ، واضطرهم في آخر الامر الى التخلي عن فكرة جعل البلاد مستعمرة تابعة لمستعمراتهم الهندية ، هل كان صفراً ايضاً ؟

لا شك في ان سعد زغلول كان على خطأ عظيم عندما اعتبر الشعوب العربية كلها أصفاراً في أصفار .

كان يحق له ان يقول : « لنا من مشاكلنا الخاصة ما يستنفد كل قوانا ، فلا يسوغ لنا ان نفكر الآن في قضايا سائر الشعوب العربية . » وان يقول ما يماثل ذلك ، ولكن ما كان يحق له ان يعتبر الشعوب العربية أصفاراً . فيقول كلمته المشهورة .

ومما يجدر ذكره في هـــذا الصدد ان احوال البلاد العربية

تغيرت كثيراً عما كانت عليه في عهد سعد زغلول؛ فاذا كانت كلمته خاطئة في ذلك الحين ، فقد اصبحت الآن أشد خطأ مما كانت عليه قبلاً بمئات الدرجات .

فلا يحق لأحد ان يقـــول الآن : « ان الشعوب العربية — وحتى الدول العربية — عبارة عن اصفار » .

نعم ، انها لم تكن آحاداً تامة ولكنها لم تكن أصفاراً ايضاً في اية حال من الاحوال .

هذا ويجب أن لا يغرب عن بالنا ان بين الآحـاد والاصفار سلسلة طويلة من الكميات التي لا يمكن ان يحصرها العد ؛ وصار علماء الرياضيات يهتمون بتلك الكميات الصغيرة اهتماماً كبيراً ، وأوجدوا حساباً خاصاً بالكميات « المتناهية في الصغر » .

واسألوا الاختصاصيين . ماذا كانت تستطيع ان تعمل الهندسة الكهربائية والهندسة الميكانيكية ، لو لم تهتم بامثال هذه الكميات ولم تستعن بالاصول الحسابية التي توصل اليها علماء ذلك الفرع من الرياضيات العالية ؟

فكيف يجوز لنا — والحالة هذه — ان نعتبر الشعوب العربية من الاصفار التي لا يحسب لها أي حساب ؟

***

ولكن هناك أمراً آخر ، أهم مما ذكرته آنفاً بدرجات وهو : ان الاجتماع لا يشبه الجمع ، وإن كان بشار كه في الاشتقاق اللغوي ، لأنه من الحقائق الثابتة أن « الاجتماع » بمعنـــاه العلمي لا يعني « الانضمام » المجرد ، بل انه يتضمن « تفاعـــلاً » يحدث بين

الافراد ، ويولد قوى جديدة وصفات جديدة .

فتشبيه الامور الاجتماعية بعمليات الجمع والضرب الحسابية يكون ، بهذا الاعتبار ، نوعاً من الهرطقة العلمية .

واذا اردنا ان نستعين بالتشبيهات الحسية لتوضيح القضايا الاجتماعية ، فيجدر بنا أن نستعيرها من الحوادث الفيزيائية الكيميائية بل من الحوادث الحياتية لا من الاعمال الحسابية .

ولنأخذ أبسط الأمثلة وأشهرها : إذا ضربنا قطعة من حجر الصوان بقطعة من الحديد ، شاهدنا حدوث شرارات . بديهي ان هذا الشرارات ما كانت موجودة قبلاً لا في الحديد ولا في الصوان ، وانما تولدت من اصطدام المادتين المذكورتين .

ولنأخذ مثالاً أوضح من ذلك - حفنة من الزجاج المطحون أو الرمل المغسول ، وحفنة من الفحم المسحوق وحفنة من النطرون ، اذا اختلطت كوّنت « البارود » . واذا تهيأت لها اسباب التفاعل ، تفجرت فجأة وتحولت الى غازات . ولا حاجة الى القول بان هذه القوة الانفجارية ما كانت موجودة في إحدى هذه المواد الثلاث : لا الفحم يحمل شيئاً من هذه القوة التي ظهرت عند الانفجار ولا الزجاج ولا النطرون ولكن اجتماع هذه المواد الثلاث كوّن البارود ؛ والبارود لا ينفجر من جراء اجتماع قوى هذه المواد جميعاً - كما تجمع الكميات في الاعمال الحسابية ، ولكنه ينفجر من جراء التفاعل الذي يحدث بين هذه المواد . وهذا التفاعل يكوّن مواد جديدة تختلف عنها جميعاً كل الاختلاف ، ويولد قوة لم تكن موجودة في احدى هذه

المواد على الانفراد .

ان التفاعلات الكيميائية لا تكون في كل الاحيان على شكل انفجار ، كما في هذا المثال ؛ ولكنها تؤدي بوجه عام الى تكوين مواد جديدة تختلف خواصها عن خواص المواد المكونة لها اختلافاً كبيراً ، كما في هذا المثال .

ولا ننسى ان الماء الزلال الذي نشربه مكوّن من امتزاج غازين غير مرئيين وغير ملموسين ، والسكر الابيض الذي نلتذ بحلاوته ، متكون من امتزاج الفحم الاسود بالماء ... او بالاحرى بغازي الماء .

***

إن تفاعلات الحياة الاجتماعية أكثر تنوعاً واشد تفاعلاً من الحوادث الكيميائية التي اشرت اليها آنفاً ، مع هذا انها تشبهها من حيث تكوين اشياء جديدة وتوليد قوى جديدة .

إن الحياة الاجتماعية لا تعني « جمع فرد الى فرد » بعملية حسابية بسيطة ، كما تجمع الكميات آحاداً أو كسوراً أو أصفاراً ، بل تعني حصول تفاعل بين مجموعة من الافراد ، تفاعل حيوي خلاق ، يؤدي الى تكوين « كائن اجتماعي » والى توليد قوى جديدة تختلف عما كان للافراد من قوى على الانفراد .

ان اتحاد الشعوب والدول ايضاً من هذا القبيل :

ان اتحاد شعوب الامة الواحدة لتكوين دولة واحدة ، لا يكون بمثابة ضم عدد الى أعداد بصورة حسابية ، ولا ربط شيء

باشياء بطريقة ميكانيكية ، ولا ضم مساحة الى مساحات بصورة هندسية ، انما يكون بمثابة خلق كائن جديد ، وعضوية جديدة ، تصبح فيه الشعوب المتحدة بمثابة الاعضاء في البـــدن الواحد ، عضوية اجتماعية جديدة تنبض فيها حياة جديدة ، ويصدر عنهـا قوى وافعال جديدة .

ومما يعلمه الجميع ان الدول والدويلات الالمانية عندما أخذت تسير في طريق الاتحاد ، بدأت بتوحيد الجمارك بصورة تدريجية . فهل كان توحيد الجمارك يعني « ضم جمرك الى جمرك الى جمرك » ؟

هـــل كان يعني ضم واردات جمـــارك « هس وكاسل ودارمشتات مثلاً الى واردات جمارك بروسيا » ؟

لا طبعاً ، إذ ان توحيد الجمارك كان يعني ايجاد نظام جمركي جديد ، وهذا النظام الجمركي الجديد ، كان يحدث تغيرات هامة وأوضاعاً جديدة في الحياة الاقتصادية ، في كل دولة من الدول التي دخلت في هذا الاتحاد ، وبهذه الصورة انتهى الامر الى تكوين « القوه الاقتصادية الالمانية » الهائلة .

ان سائر افاعيل الاتحاد ايضاً كانت من هذا القبيل . إنهـا أوجدت دولة جديدة ، ذات أوضاع جديدة ، وقوى جديدة .

يخطيء من يتوهم أن عمل « الوحدة الالمانية » انحصر في جمع قوى الدول والدويلات الالمانية ، بعضها الى بعض .

ويخطيء من يظن ان « الوحدة الايطالية » لم تنتج شيئاً غير جمع القوى المبعثرة في مختلف الأقطار الايطالية .

ويخطيء — في الاخـــير — من يظن بان قضايا « الوحـدة

العربية » ، يمكن ان تدرس وتعالج باعمال حسابية . ولنعلم العلم اليقين بان « الاتحاد يولد قوة » ليس عن طريق « جمع القوى » فحسب ، بل عن طريق ايجاد حياة جديدة واوضاع جديدة تولد قوى جديدة « تفوق مجموع القوى المتفرقة بآلاف الدرجات .

* * *

أفلا يحق لي ان اقول بعد هذه الايضاحات : — علينا، اولاً، أن نكف عن اعتبار أنفسنا وشعوبنا — أصفاراً ؛ وعلينا ، ثانياً أن نؤمن بان في شعوبنا قوى كامنة هائلة يمكن أن تتحول الى قوى فاعلة ، إذا بذلنا في هذا السبيل الجهود اللازمة .

وعلينا،ثالثاً ، ان نكف عن تشبيه قضايا اتحاد الامة بعمليات جمع الاعداد .

وعلينا في آخر الامر ان نكف عن الاستشهاد بكلمة « جمع الاصفار الى الاصفار » ، في قضايا القومية العربية ، ولو كانت الكلمة المذكورة من بنات افكار سعد زغلول الخالد .

مرآة عبد الرحمن عزام

لقد شعر الاستاذ عبد الرحمن عزام، في اواخر عهده بالامانة العامة لجامعة الدول العربية ، بوجاهة الكثير من الانتقادات التي كانت توجه الى اعمال الامانة العامة واحوالها ، فاراد ان يدفع مسؤولية تلك الاحوال والاعمال عن نفسه ، بالقائها على عاتق البلاد العربية باجمعها ، فقال : « ان الامانة العامة ، ما هي الا مرآة الدول العربية .. والاحوال التي تشاهد فيها ما هي الا ما ينعكس عليها من أحوال البلاد العربية ... »

هذه الكلمة راقت لعدد غير قليل من المشتغلين بالشؤون العربية ، فصارت تتردد على السنتهم كثيراً ، وتحملهم على القول بان « ليس في الامكان ابدع مما كان » ، « ما دامت هذه هي احوال البلاد العربية » !

واما انا ، فعندما اطلعت على هذه الكلمة ، قلت على الفور : « ما دام الاستاذ عبد الرحمن عزام يريد ان يشبه الامانة العامة بالمرآة ، بقي عليه ان يقول لنا : من أي نوع من أنواع المرايا هي ؟ »

من المعلوم ان للمرايا انواعاً عديدة : هناك مرايا مستوية ، تعكس صور الاشياء باشكالها والوانها الاصلية ؛ ومرايا مشوّهة ، تغير الالوان والاشكال بصور شتى : مرايا تصبغ أنضر الوجوه بصفرة الموت ، ومرايا تحوّل الغادة الهيفاء الى عجوز شمطاء ، وتجعل من أوسم الوجوه عفاريت مخيفة ..

فأيّ نوع من أنواع هذه المرايا تشبه الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ؟

واذا تركنا التعبيرات والتشبيهات الأدبية جانباً ، وأردنا أن نصف انواع المرايا باسمائها العلمية ، قلنا ان هناك مرايا مستوية تعكس الأشعة كما وردت عليها ؛ ومرايا مقعرة ، تقرّب الاشعة الواردة عليها وتجمعها ؛ ومرايا محدبة تبعد الاشعة الواردة عليها وتبعثرها ؛ ومرايا غير منتظمة السطوح ، تقرب بعض الاشعة ، وتبعد بعضها ، وتترك بعضها على حالها ، وتشوّه بذلك صور الاشياء الخارجية بشتى ضروب التشويه .

فإلى أي نوع من هذه الانواع تنتسب المرآة التي صنعهـا واستعملها الاستاذ عبد الرحمن عزام ، منذ تأسيس جامعة الدول العربية ؟

انه لا يستطيع ان يتخلص من التهم الموجهة اليه بمجرد تشبيه الامانة العامة بالمرآة .. بل يترتب عليه ان يبرهن في الوقت نفسه على أن هذه المرآة كانت من المرايا المستوية السليمة ، لا من المرايا المشوّهة والمشوّهة !

فهل يستطيع أن يفعل ذلك ؟

***

فضلا عن ذلك كله ، أنا أرى من الضروري ان اوجه اليه ، – والى كل من يشاركه رأيه في هذا المضمار – سؤالاً آخر ، إتماماً للاسئلة الآنفة الذكر . هل كان يجوز للامانة العامة ان تعتبر نفسها « مرآة » وتعمل على الدوام عمل المرآة ؟

إني أسأل هذا السؤال ، لاني اعتقد ان المهمة التي عهد بها الى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية تتطلب منها ان تكون من « الآلات المحركة » ، لا من « الآلات العاكسة » . فما كان يجوز لها ان تعتبر نفسها بمثابة مرآة تكتفي بعكس الاشعة الواردة عليها من مختلف الجهات ، بل كان يجب عليها ان تكون « ماكينة » تقوم بمهمة التحريك والتوجيه والتنظيم والتنسيق .

ولذلك استطيع ان اقول ان الاقدام على تشبيه الأمانة العامة بالمرآة ، يدل في حد ذاته على عدم تقدير خطورة مهمتها حق التقدير .

***

لنترك التشبيهات جانباً ، ولنرجع الى أساس قضية الامانة العامة واعمالها .

هل كانت الامانة العامة غير مسؤولة عما آلت اليه الاحوال ؟ وتلك الاحوال ، هل كانت فعلاً نتيجة طبيعية لاحوال البلاد العربية ، كما يدعي ذلك الاستاذ عبد الرحمن عزام ؟

لا شك في انه يستطيع ان يذكر لنا قضايا عديدة ، تقع مسؤوليتها – بكل تأكيد – على دولة عربية ، او مجموعة من الدول العربية ، او جميع الدول العربية .

ولكن أنا أيضاً أستطيع أن أذكر له – بعكس ذلك – عشرات من الامور الهامة ، التي لم تتدخل فيها دولة من الدول العربية بوجه من الوجوه، والتي تقع مسؤوليتها على الامانةالعامة نفسها ، بكل تأكيد !

بل اني أستطيع ان اذكر بعض الامثلة عن أعمال اقدم عليها هو ، مخالفاً اقتراحات ومقررات ممثلي الدول العربية ، مخالفة صريحة .

انا افهم ان يتحجج عبد الرحمن عزام بأحوال الدول العربية في كثير من القضايا السياسية ، وإن كنت اجزم بانه هو ايضاً كان يشترك في مسؤولية معظم تلك القضايا ويتحمل اعظم المسؤوليات في بعضها ؛ ولكني لا افهم بوجه من الوجوه كيف يستطيع ان يدافع عن نفسه بحجة « احوال البلاد العربية » في غير الامور السياسية ، ولا سيما في امور الادارة الداخلية العائدة الى الامانة العامة نفسها .

تولى عزام الامانة العامة لجامعة الدول العربية منذ بداية تأسيسها . فكانت امامه لوحة ملساء ، يستطيع ان يرسم عليها ما يشاء ، وأرض فضاء يستطيع ان يبني عليها احسن البناء .

كان مجلس جامعة الدول العربية قد عهد اليه امر انشاءمنظمة جديدة ؛ وكان لا يقيده شيء من قيود الماضي ، ولا تقليد من التقاليد الموروثة ؛ فكان باستطاعته ان ينشيء المنظمة على امتن الاسس ، وبأحسن العناصر ، وعلى اكمل الصور .

ثم ، انه كان يتمتع – في السنين الاولى من عمله – بتقدير

الجميع وثقتهم ، جميع الحكومات العربية وجميع رجال السياسة .

وفضلاً عن ذلك كله ، كانت بين يديه موارد مالية كبيرة ، وسلطة مالية واسعة .

وخلاصة القول : قد توافرت لدى عبد الرحمن عزام جميع شروط النجاح ووسائل العمل المادية والمعنوية ، الى درجة لم يتوافر مثلها، على ما اعلم، لاي رجل من رجال السياسة العربية بوجه عام ...

ولكن ، ماذا عمل عزام ؟ كيف استعمل هذه السلطة الواسعة ، وبأي شكل استفاد من تلك الثقة العامة ؟ هل قدر خطورة المهمةالتي تعهدها تمام التقدير؟وهل سعى للقيام بالواجبات المترتبة على الامانة العامة ، بكياسة وتجرد ؟ هل اظهر في أعماله شيئاً من قدرة التنظيم ، وفي خطبه شيئاً من نفاذ النظر ؟

ان كل ما عرفته عن احوال الامانة العامة وخططها واعمالها حق المعرفة ، لا يترك لي مجالاً للاجابة على هذا السؤال بغيرالنفي البات :

أسس عزام ادارة من أسوأ الادارات التي عرفتها في مختلف البلاد العربية التي قدر لي ان اعمل فيها ؛ ووضع تقاليد مالية ، من اسخف ما يمكن ان يخطر على البال ...

ثم ، ركز جهوده على المسائل السياسية وحدها ، واهمل كل ما بقي من الامور ، مع ان ميثاق جامعة الدول العربية كان قد جعل الامور الاقتصادية والقانونية والثقافية ايضاً موضع اهتمام

خاص . ومع ان قليلاً من التفكير الجـــدي في القضايا القومية كان يكفي للتأكد من ان التقدم الذي يحصل في تنسيق وتوحيد شؤون الدول العربية في هذه الميادين ، كان لا بد من ان يسهل التنسيق والتوحيد في ميدان السياسة ايضاً تسهيلاً كبيراً ...

والسياسة نفسها ، كيف فهمها عزام ؟ مع الاسف ، لقد توهم بان القضايا السياسية تعالج بالخطب والاحاديث المرتجلة وحدها ، فـلا تحتاج الى شيء من الدرس والبحث والاستقصاء ، وتستغني عن كل انواع الوثائق والمعلومات !

والوثائق والمعلومات ... كان آخر ما يثير اهـتمام عزام ، واقـــل ما يمكن ان يحصل عليه الباحث في الدوائر التي انشأها عزام ! ...

فكيف نستطيع ان نسلم مع ذلك ، أمـام كل هذه الحقائق والوقائع ، ان مسؤولية هذه الامور كلها تعود الى احوال البلاد العربية بوجه عام ؟

مَن أنا .. ومَن أنت
بل
مَن نحنُ ؟

من انا ... ومن انت ؟

من انا ومن أنت ؟

هذه مسألة أثارها الاستاذ فتحي رضوان – الكاتب والوزير المعروف في مصر – بمحاضرة القاها في نادي نقابة الصحفيين في القاهرة ، وبمقالة نشرها في جريدة أخبار اليوم في عددها الصادر في ٢١ / ٣ / ١٩٥٣

وقد أوضح الاستاذ فتحي رضوان قصده من هذا السؤال ، في مستهل المقالة ، بالعبارات التالية :

« لا تعجب لهذا السؤال ، ولا تأخذه على ظاهره . فلست أباهي الناس ، ولا أفاخرها ، ولا انا اتحداك أو اصغّر من شأنك.

« ولست اسألك عن اسمك ، ولا صناعتك . ولست بالطبيعة جاهلاً لاسمي ، ولا للعمل الذي أقوم به .

« ومع ذلك كله ، فانا اسأل : من انا ومن انت ؟ وبعبارة أخرى : من نكون جميعاً ؟

« نعم ، من يكون هؤلاء الذين يقيمون في هذه الرقعة من الأرض التي تسمى مصر ؟

« انهم لم يفكروا في هذا ؛ ولم يفكر لهم فلاسفتهم فيه ، ولم تفكر الحكومات المتعاقبة في الاجابة عليه .

« ومع ذلك ، هو سؤال خطـــير ، ونتائج التهرب من مواجهته ، والفرار منه ، أفدح مما نظن ، وهي نتائج وخيمة ، يتجاوز أثرها عـــالم السياسة الى عالم التعليم والتثقيف والخلق والتكوين . ثم اخيراً الاستقرار الاجتماعي الذي تقوم عليه الامم وتثبت به اقدام الشعوب .. »

وبعد هـــذه المقدمة ، يزيد الاستاذ فتحي رضوان قصده ايضاحاً ، بسرد سلسلة اسئلة تتفرع من هذا السؤال الأصلي :

« فنحن حقاً مصريون . ولكن هل هؤلاء المصريون عرب ؟ وهل هم عرب جنساً أم عرب سياسة ، أم عرب ثقافة ؟

« أم هؤلاء المصريون مسلمون ؟ ومسلمون هنا لا تنصرف الى العقيدة ، وانما تنصرف الى السياسة والثقافة معاً والمعايير — يعني : هل سنقيم سياستنا وتعليمنا ودستورنا عـــلى أساس من الاسلام ؟ »

« أم هؤلاء المصريون افريقيون ؟ فلا تقتصر علاقتهم بافريقيا على الوجود المادي فيها ، وعلى ارتباطنا العميق الوثيق بالسودان ، وعلى ارتباط نيلنا بالحبشة . بل تتجاوز هذه العلاقات ، هذا الحد البدائي ، نتيجة جهودنا ، وينصرف نشاطنا الى ملء الفراغ الحيوي في افريقيا الشمالية الشرقية وافريقيا الشمالية ، وخلق جبهة تضم مصر والسودان واوغندا وكينيا والحبشة من جهة ، ثم طرابلس وتونس ومراكش والجزائر من جهة أخرى ...

« ام هؤلاء المصريون من اهل البحر الابيض المتوسط ؟ فسياستهم وثقافتهم تقوم على تقوية العلائق السياسية والثقافية بدول وشعوب هذا البحر ، ولا سيما دول الجزء الشرقي والجنوبي منه ، مع تدعيم هذه العلائق بخلق جبهة تضم هـــذه الدول ، لتوحد سياستها ، وتنسق اقتصادياتها ، والاستزادة من التبادل الثقافي بينها.

« ام هؤلاء المصريون من أوروبا ، وبلادهم قطعة منها ، كما كان يقول الخديو اسماعيل منذ سبعين عاماً ؟ وهل كتب علينا ان ندع أبواب بلادنا مفتوحة في وجه ثقافة اوروبا وتقاليدهـــا وفنها ؟ أم ان هذه الثقافة تدمّر وجودنا ، وتعدم طابعنا ، وتحكم علينا بالاعدام الأدبي ، ثم بالاعدام المادي ؟

من نحن ؟

« هذا هو السؤال الصارخ المدوي الذي يجب ان يلاحقه الساسة ورجال التعليم ورجال الاجتماع ، والذي ينبغي ان يجيبوا عليه ، بلا تردد ولا ابطاء .. »

وبعد هذه الاسئلة التفصيلية ، يتوسع الاستاذ فتحي رضوان في شرح أهميتها ؛ ولكنه لا يجيب عليها ، وانما يدعو الباحثين الى الاهتمام بها ، « بعقد الندوات ، وكتابة الرسالات ، والقـــاء المحاضرات »...

***

وقد سارعت مجلة المصور الى تلبية هذه الدعوة ، ونظمت مناقشة في هذا الموضوع في قاعة الاجتماعات بـ « دار الهلال » .

وقد « اشترك في هذه المناقشة ثلاثة وزراء ، هم : الاستاذ

فتحي رضوان الذي تولى ادارة المناقشة ، والدكتور عباس عمار وزير الشؤون الاجتماعية ،والدكتور وليم سليم حنا وزير الشؤون البلدية ؛ كما اشترك فيها الاستاذ عبد الرحمن عزام الامين العام السابق لجامعة الدول العربية ، والدكتور منصور فهمي مدير جامعة الاسكندرية الاسبق ،والاستاذ حسين كامل سليم وكيل جامعة القاهرة ، والاستاذ فكري أباظة ، وشهد المناقشة « عدد كبير من ذوي المكانة والرأي والشباب المثقف » .

وقد نشرت مجلة المصور في عددها الصادر في ١٩٥٣/٤/١٧ — خلاصة وافية لما دار في تلك المناقشة ،كما سجلها بطريقة الاختزال الاستاذان حسن محمود النقلي وفائز سابا ، السكرتيران بمجلسي البرلمان » .

***

اني اعتبر هذه المناقشة من « الوثائق الهامة » ، نظراً للمكانة السياسية والثقافية التي يتمتع بها الرجال الذين اشتركوا فيها . واعتقد ان الاستاذ فتحي رضوان ادى الى « تاريخ الفكرة القومية في مصر » ، خدمة كبيرة ، باثارة هذه المسألة ، في هذه الآونة ، لانه اتاح بذلك فرصة ذهبية لتدوين آراء نخبة من ساسة مصر وكتابها ، في « القضايا القومية الاساسية » بوجه عام ، وفي قضية « القومية العربية » بوجه خاص . كما اعتقد ان مجلة المصور استحقت الشكر والتقدير ، على تنظيم هذه الندوة ، مع نشر الآراء التي أبديت خلالها .

وبناء على اهمية القضايا التي اثيرت خلال هذه المناقشة ، رأيت

ان الفت الانظار اليها ، مع ابداء رأيي فيها .

***

قد يعترض عليّ معترض ، قائلاً : « ان السؤال موجه الى المصريين ، والمقصود منه ، هو حمل المصريين على التفكير في قضاياهم القومية . فلماذا تحشر نفسك في هذه المناقشة ، وانت لست من المصريين ؟ »

ولكني أرد على هذا الاعتراض بما كنت كتبته ونشرته قبل نحو سبعة عشر عاماً ، في مجلة صديقي الاستاذ احمد حسن الزيات .

عندما نشرت في مجلة الرسالة رأيي « في نظام التعليم » القائم في مصر ، عندئذ ، تحت عنوان « نقد نظام التعليم في مصر » ، أنهيت بحثي بهذه العبارات :

« أرجو أن لا يعتبرني أحد متطفلاً على مصر بهذه الملاحظات . فاني عربي صميم ، أدين بدين العروبة بكل جوانحي ، وأهتم بمصر بقدر ما أهتم بسورية والعراق .

« ولا أكون مغالياً اذا قلت : انني أهتم بمصر اكثر مما أهتم بسورية والعراق ، لأنني أعرف أن مصر — بحسب اوضاعها العامة — أصبحت القدوة المؤثرة على العالم العربي باجمعه . فأعتقد لذلك ، ان كل تقدم يحصل في مصر لا يخلو من النفع لسائر البلاد العربية ، كما ان كل نقص يعيش ويستمر في مصر لا يخلو من ضرر العدوى الى سائر البلاد العربية .

« فكل خدمة تسدى الى مصر ، تكون كأنما اسديت الى البلاد العربية بأجمعها . »

ان ما حدث من تطور في أحوال البلاد العربية بوجه عام ، وأحوال مصر بوجه خاص - منذ كتابة الأسطر المذكورة - قوّى ايماني بذلك ، وضاعف اهتمامي بشؤون مصر ، مئـــات الدرجات .

اني ادون ملاحظاتي على اسئلة الاستاذ فتحي رضوان ، وعلى المناقشة التي جرت حولها ، في الصحائف التـــالية مدفوعاً بهذا الايمان ...

ملاحظات
على الأسئـــلة

قبل كل شيء ، أرى أن ابدي بعض الملاحظات على الاسئلة نفسها .

اذ من المعلوم ان تحديد المسائل وعرضها عرضاً واضحاً يسهل حلها تسهيلاً كبيراً . وبعكس ذلك فأن عدم الاهتمام بتحديد المسائل وتوضيحها ، يؤدي الى تشويش الأبحاث وتعقيد القضايا ، دون مبرر ، فيعرقل حلها عرقلة كبيرة .

* * *

ولذلك ، أرى ان أقف أولاً عند صيغة السؤال الأصلي :

« من أنا .. ومن أنت ؟ »

من المعلوم أننا عندمـــا نسأل شخصاً من الأشخاص « من أنت ؟ » ، نطلب منه – عادة – أن يعرفنا « هويته » ، ويبين لنا « شخصيته » . ولذلك يتوجه ذهن مخاطبنا ، أول ما يتوجه ، الى ذكر « ما يميزه عن غيره » من الناس .

وكذلك ، عندما يسائل أحدنا نفسه « من أنا ؟ » يتجـــه

بتفكيره نحو « هويته » و « شخصيته » ، وبتعبير آخر نحو ما يخوله ان يقول « أنا » .

في حين ان المقصود من سؤال الاستاذ فتحي رضوان ، — كما يتضح من التفاصيل التي تلي السؤال — ، لم يكن تحديد « الهوية أو الشخصية » ، ولكن تعيين « المجموعة البشرية » التي ينتسب اليها ويندمج فيها « المتكلم والمخاطب » ؛ وبتعبير أقصر : هو تعيين ما نستطيع ان نسميه بـ « النحنية » .

ولذلك ، كان من الاوفق أن يصاغ السؤال على شكل « من نحن ؟ » عوضاً عن « من أنا ؟ ومن أنت ؟ » .

ومما يبرهن على ذلك برهنة قاطعة، ان الاستاذ فتحي رضوان نفسه ، عندما أخذ يشرح قصده بأسئلة تفصيلية ، اضطر — غير مرة — الى أن يقول : « من نحن ؟ »

ان هذه الصيغة التي مرت عليه مروراً سريعاً ، كان يجب ان تكون الصيغة الأصلية للسؤال .

وإلا ، اذا بقي السؤال على شكل « من أنا ومن أنت ؟ » لكان أصح الأجوبة عليه ، هو ما قاله الدكتور منصور فهمي في الندوة ، بشيء من المداعبة : « أنا أنا .. وأنت أنت ! .. » .

بعد هذه الملاحظة الأولية ، لا بد لي من ان اقول كلمة حول لفظة « أم » التي يبدأ بها كل سؤال من الأسئلة التفصيلية التي سردها الاستاذ فتحي رضوان :

« هل المصريون عرب ؟ أم هم مسلمون ؟ ام هم افريقيون ؟ أم .... أم .... » .

ومن نافلة القول ان لفظة « أم » تدخل منطقياً بين أمرين نعتقد بانه لا يمكن ان يجتمعا ، فنرى ان لا مندوحة من اختيار احدهما ؛ ولكنها لا تدخل بين الأمور التي لا يتعارض بعضها مع بعض .

ولذلك لا يجوز لنا نسأل شخصاً من الاشخاص : « هل اسمك محمد فتاح ، ام مهنتك الطب ؟ » كما لا يسوغ لنا ان نوجه الى احد مثل هذه الاسئلة : « هل انت مسلم ، أم محامٍ ؟ » ، « هل انت معلم ، ام انت اسكندراني ؟ » ، « هل انت مصري ام انت قاضٍ ؟ »

اني اعتقد ان الاسئلة التفصيلية المسرودة في مقالة الاستاذ فتحي رضوان ، كلها من هذا النوع : « المصريون ، هل هم عرب؟ ام هم مسلمون ؟ ام هم افريقيون ؟ .. »

فهل من مانع يمنع الشخص الواحد ، من ان يقول : « انا مصري ، عربي ، مسلم ، افريقي ... في وقت واحد ؟ »

* * *

هذه مسألة هامة ، يجب ان تبقى نصب الاعين في امثال هذه الابحاث .

ان الحياة الاجتماعية – في طورها المتقدم الذي نعيشه في هذا العصر – معقدة غاية التعقيد : فان كل فرد من الافراد ينتسب الى جماعات ومجتمعات عديدة ، في وقت واحد . وبتعبير آخر : انه يرتبط بروابط معنوية متنوعة ، بعدد كبير من الجماعات والمجتمعات ، وكل رابطة من هذه الروابط تدفعه الى بعض

الاعمال ، وتحمّله بعض الواجبات .

ومن الحقائق الثابتة في علم الاجتماع ، ان المجتمع ، كلما كان متقدماً وراقياً ، كانت الجماعات التي يرتبط بها وينتسب اليها كل فرد من افراده ، كثيرة ومتنوعة .

والامر الذي يجب ان يكون موضوع البحث والتفكير — من جراء ذلك — هو ، اولاً : تعيين الواجبات التي تنجم عن كل نوع من أنواع هذه الروابط ، وثانياً : تحديد المواقف التي يجب ان تعطى فيها الاولوية الى كل واحد من هذه الواجبات . ولزيادة الايضاح ، اضرب مثلاً من الحياة اليومية :

لنفرض أن هناك شخصاً اسمه « محمود راضي » ، مولود في بنها ؛ وقد تزوج وأنجب ثلاثة أولاد ، وله والد ووالدة وعدة اخوة على قيد الحياة ؛ وهو طبيب ، وموظف في المستشفى الأميري ، وصاحب عيادة خاصة ؛ كما انه عضو في الجمعية الطبية المصرية ،وعضو مراسل في بعض الجمعيات العلمية الاممية . وخلاصة القول : انه ابن ، وزوج ، ووالد ، وعم ، وأخ ، وطبيب ، ومسلم ، وبنهاوي ، وموظف ، ومصري ، وعضو في جمعية علمية مصرية ،ومنتسب الى جمعية علمية اممية .. في وقت واحد ..

ولا حاجة الى القول ان كل صفة من هذه الصفات تحمّله بعض الواجبات . وهناك مواقف ، تحتم عليه أن يقوم بواجبات « رئيس الاسرة» قبل كل شيء ؛ وهناك مواقف تتطلب منه أن يعمل عمل « الطبيب » على وجه الانحصار ؛ ومواقف تحتم عليه أن ينصرف الى أداء واجبه الديني ،بقطع النظر عن سائر الامور؛

وهناك مواقف تفرض عليه أن يضع الأبحاث العلمية فوق كل اعتبار ...

وفضلاً عن كل ذلك ، فان هذا الطبيب ، يمكن ان يصبح عضواً في المجلس البلدي ، ويمكن أن يشتغل بالسياسة ، وينتسب الى حزب من الأحزاب ، ويمكن ان يصبح نائباً في البرلمان .

وفي كل هذه الحالات ، يجب عليه ان يفكر في الواجبات التي تترتب عليه من جراء كل واحدة من هذه الصفات الجديدة ، وان يعين لهذا الواجب الجديد « الموضع اللائق به » في « سلم الواجبات » .

ومن البديهي — مثلاً — انه عندما يقوم بعيادة مريض ، يجب أن لا يفكر في شيء غير التطبيب ؛ وان يعالج المريض دون ان يفكر فيما اذا كان مسلماً أو مسيحياً ، مصرياً أو أجنبياً ...

وعندما يذهب الى اجتماعات المجلس البلدي ، يجب عليه ان يفكر في مصلحة البلدة ، من غير أن يتأثر بمصالح أسرته ، او منافع اصدقائه ..

وعندما يدخل قاعة البرلمان ، يجب أن يفكر في « مصلحة البلاد » بوجه عام ، من غير أن يقدّم عليها شيئاً من مصالح أسرته أو بلدته ...

وفي الأخير ، يجب على هذا الطبيب ان لا ينسى انه انسان ، وانه محاط ومتصل بعدد كبير من بني الانسان ، ويجب ان يعرف بانه يتحمل بعض الواجبات ، بهذه الصفة ايضاً ..

***

ان ما قلته آنفاً عن الطبيب ينطبق – تقريباً – على جميع أفراد المجتمع ، بـــلا استثناء : كل فرد من أفراد البشر مربوط بجماعات متنوعة ، ومكلف بواجبات عديدة .

ان كثرة هذه الواجبات ، وتنوع هذه الروابـــط ، من الامور الطبيعية في الحياة الاجتماعية

واما البلبلة في التفكير الاجتماعي والسلوك المعشري ، التي نلاحظ في كثير من الظروف ، فانها لا تتولد من تعدد وتنـوع هذه الروابط والواجبات ، انما تنشأ من التقصير في ترتيبها ترتيباً معقولاً ، يعطي كلاً منها حقها ، في مختلف المواقف والظروف .

اني أعتقد ان المسائل التي أثارها الاستاذ فتحي رضوان ، يجب ان تناقش وتحل على ضوء الحقائق والمباديء الأساسية التي سردتها آنفاً .

***

واني ألاحظ – في الوقت نفسه – ان بعض الأسئلة التفصيلية التي أثارها الاستاذ فتحي رضوان – في صدد ايضاح قصـده من سؤال « من أنا ، ومن انت » – لا يتفرع من هـــذا السؤال الأصلي ، ولا يتصل بالأسئلة الأخرى .

مثلا ، انه يسأل : « هل كتب علينا أن ندع أبواب بلادنا مفتوحة في وجه ثقافة أوروبا وتقاليدها وفنها ، أم ان هذه الثقافة تدمّر وجودنا ، وتعدم طابعنا ، وتحكم علينا بالاعـدام الأدبي ، ثم الاعدام المادي ؟ » .

ولا حاجة الى القول : ان هذا السؤال – على الرغم من اهميته

وخطورته – ، لا يرتبط برابطة ما بمسألة « من أنا ومن أنت » أو « من نحن » ، ولا بسؤال من الأسئلة التي تتفرع عنها .

لأن كل فرد ، يستطيع أن يدعو الى « الأقليمية المصرية » في الامور السياسية ، ويقول مع ذلك بوجوب اقتباس الحضارة الغربية والثقافة الأوروبية الى أوسع حدود الاقتباس ، أو يعارض ذلك أشد المعارضة .

وكذلك يستطيع الفرد ان يقول بوجوب اتحاد مصر مع سائر البلاد العربية ، من غير أن يجد نفسه مضطراً – من جراء ذلك – ، الى القول بوجوب اقتباس الحضارة الاوروبية ، او الى معارضة هذا الاقتباس .

ان امثال هذه المسائل ، يجب أن تفصل بعضها عن بعض ، لكي تدرس وتناقش وتحل كل واحدة منها على حدة .

اني أعتقد ان العقامة التي تمنى بها وتنتهي اليها معظم المناقشات في كثير من الندوات ، إنما تنشأ – في الدرجة الاولى – من عدم مراعاة هذا المبدأ الأساسي : ان العقامة التي أشرت اليها ، ما هي الا نتيجة طبيعية لعدم فصل القضايا بعضها عن بعض ، ومحاولة حلها دفعة واحدة ، مع كونها في حالة « خليطة معقدة من المسائل المتنوعة » .

ولذلك .. اني سأترك هنا مسألة الحضارة الاوروبية جانباً ، وسأكتفي بأبداء رأيي في المواضيع التي اثارها الاستاذ فتحي رضوان ، في حدود « السياسة العليا » وحدها : وبتعبير ادق « فيما يتصل بالاتجاهات القومية والوطنية » على وجه الانحصار

مواضيع البحث

ان المسألة التي اثارها الاستاذ فتحي رضوان ، بتساؤله «من أنا ... ومن أنت ؟» يمكن ان تفرغ في القالب التالي :

« ماذا يجب أن يكون المحور الاساسي الذى تدور حوله ، والهدف الاسمى الذي تتجه نحوه ، سياسة مصر القومية ؟ » .

واما المسائل التفصيلية والفرعية التي ذكرها خلال شرح مقصده ، فيمكن ان ترجع الى التيارات الفكرية التالية :

الاتجاه نحو الرابطة الافريقية ،

الاهتمام برابطة البحر الابيض المتوسط ،

السعي وراء الجامعة الاسلامية ،

التوجة نحو الوحدة العربية ،

التمسك بالاقليمية المصرية ، والاهتمام بالتقاليد الفرعونية .

إني سأبدي رأيي في كل واحد من هذه التيارات الفكرية ، والنزعات السياسية ، بشيء من التفصيل :

١ – الرابطة الافريقية

من المعلوم أن مصر تقع في اقصى الشمال الشرقي من القارة

الافريقية ، فهي « افريقية » بهذا الاعتبار .

ولكن ، هل يحتم هذا الوضع الجغرافي على المصريين ان يعتبروا أنفسهم من الشعوب الافريقية ، فيربطوا مقدراتهم بمقدرات تلك الشعوب ؟ هل يترتب على مصر – من جراء هذا الوضع – ان تجعل « الرابطة الافريقية » محوراً لسياستها العامة فتسعى وراء توحيد شعوب هذه القارة ؟

للاجابة على هذه الاسئلة ، جواباً علمياً ، يجدر بنا ان نبدأ بلاحظة الحقائق التالية :

ان الانتساب الى قارة من القارات لم يكوّن « رابطة سياسية » ، في دور من ادوار التاريخ . لم تتحد شعوب قارة من القارات ، لا في القرون القديمة ، ولا في القرون الوسيطة ، ولا في العصور الحديثة . حتى ان القارة الاوروبية نفسها ، – وهي أرقى القارات بوجه عام – ، لم تتحد في يوم من الايام ؛ بل انها صارت مسرحاً لسلسلة طويلة من الحروب الطاحنة ، التي نشبت بين شعوبها المختلفة .

وبعكس ذلك ، استطاعت دول عديدة ، في مختلف ادوار التاريخ ، ان تبسط حكمها على أراض لا تقف عند حدود القارة الواحدة : فان الامبراطورية الرومانية ، والدولة البيزنطية ، والخلافة الاموية ، والسلطنة العثمانية ... جمعت تحت لوائها بلاداً من القارات الثلاث. والدولة الفاطمية ، والدولة الايوبية ، ودولة المماليك ، بسطت سيطرتها على بلاد ، بعضها آسيوية ، وبعضها افريقية . كما أنه – حتى في يومنا هذا – ، تضم كل من روسيا

السوفيتية ، والجمهورية التركية ، بلاداً أوروبية واخرى آسيوية .

ويظهر من ذلك كله ، ان السياسة لا تتقيد بحدود القارات .

***

وفضلا عن ذلك ، يجب ان لا يغرب عن البال ، ان لمصر جزءاً آسيوياً ، وهو شبه جزيرة سيناء . وهذا الجزء الآسيوي ، — وإن كان قليل المساحة بالنسبه الى مجموع الاراضي المصرية ، وان كان قليل السكان وقليل الموارد في الاحوال الحاضرة — ، فانه عظيم الخطورة من الوجهة السياسية والاستراتيجية . فمما لا شك فيه ان شبه جزيرة سيناء لو كانت خارجة عن حدود الدولة المصرية ، ولو كانت مسكونة بشعب غير عربي ... لتغيرت منزلة مصر العالمية تغيراً كبيراً ، وتغيرت معها مقدرات مصر ومصيرها تغيراً كلياً .

ومن المعلوم ان الدولة العثمانية حاولت ، عدة مرات ، أن تقلص حدود مصر من جهة سيناء ؛ ولكن بريطانيا عارضت ذلك معارضة شديدة . حتى انها اوصلت الأمر — مرة — الى حد التهديد بالحرب :

في سنة ١٩٠٥ ، خلال انشاء سكة حديد الحجاز ، ارسلت الدولة العثمانية حامية صغيرة ، الى واحة ضئيلة ، تقع في غربي العقبة . ولكن ذلك أثار ثائرة الحكومة البريطانية ، فاسرعت في توجيه انذار شديد الى « الباب العالي » ، ودعمت هذا الانذار بارسال اسطول ضخم ، استعداداً للقيام بحركات حربية . وامام

هذا الانذار والضغط ، اضطرت الدولة العثمانية الى سحب الحامية المذكورة من تلك القرية الصغيرة .

أعتقد ان هذه الواقعة وحدها تكفي لاظهار أهمية هـــذا الجزء الاسيوي من الديار المصرية .

ولا أراني في حاجة الى القول بان أهميـــة شبه جزيرة سينا تضاعفت مئات المرات بعد كارثة فلسطين التي ادت الى استعمار صحراء النقب ، وانشاء ميناء ايلات في رأس خليج العقبة .

وبناء على كل ما سبق ، نستطيع أن نقول بلاتردد : لا يجوز للمصريين ان يعتبروا بلادهم افريقية محضة .

واذا نقلنا البحث والنظر الى ساحة اللغة والثقافة توصلنا الى نتيجة أوضح وأقطع من ذلك بكثير :

فان الثقافة ايضاً لا تتقيد بحدود القارات ، والقارة الواحدة تنقسم الى مناطق ثقافية عديدة ، كما ان المنطقة الثقافية الواحدة قد تضم بلاداً تقع في اكثر من قارة واحدة .

ولا توجد — في حقيقة الأمر — ثقافة يمكن نعتها بالافريقية او بالآسيوية ، كما لا توجد لغة افريقية ، ولغة آسيوية .

واذا أمعنا النظر في وضع مصر — من حيث اللغة والثقافة — وجدنا انها تقع في وسط « عالم عربي » واسع الارجاء ، يمتد من شواطيء المحيط الاطلسي في الغرب الى هضاب ايران في الشرق ، ويضم بذلك الجزء الشمالي من القارة الافريقية مع الجزء الجنوبي الغربي من القارة الآسيوية .

فلا مجال لاعتبار مصر « افريقية » من هذه الوجهة ابداً .

بل نستطيع ان نقول بكل تأكيد ان مصر قريبة جداً – من الوجهة الثقافية – من العراق والكويت والبحرين الواقعة في قارة آسيا ، وبعيدة جداً عن الترنسفال واوغندا ، والحبشة الواقعة في القارة الافريقية .

لا شك في انه يترتب على مصر ان تهتم بالحبشة اهتماماً خاصاً ، وتتخذ نحوها سياسة حكيمة ، ولكنها يجب ان تفعل ذلك ، لكون الحبشة متاخمة لحوض النيل لا لكونها من بلاد القارة الافريقية .

يترتب على مصر ان تضع هذه المتاخمة نصب أعينها عند تخطيط سياستها ، كما يترتب على العراق أن يأخذ بنظر الاعتبار متاخمته لتركيا وايران ، وعلى سوريا ان تلاحظ متاخمتها لتركيا ، ويترتب على مجموع الدول العربية ، أن توجه الى شؤون هذه الدول الثلاث ، ما تستحقه من الاهتمام ، بسبب هذه المتاخمة الجغرافية .

ولكن كل ذلك يدخل في نطاق الامور الفرعية ، فلا يجوز أن يعتبر محوراً اساسياً لسياسة مصر ، ولا لسياسة سائر الدول العربية .

وخلاصة القول ، نستطيع نؤكد ان علاقة مصر بالقارة الآسيوية ، وببعض الشعوب القاطنة في القارة المذكورة ، أقوى وأعظم بمئات الدرجات من علاقتها بالقارة الافريقية والشعوب الافريقية .

والأمر كان كذلك في الماضي ، وهو لا يزال كذلك في الحالة الحاضرة ، وسيبقى كذلك في المستقبل .

فلا يجوز لمصر أن تجعل فكرة « الرابطة الافريقية » محوراً لسياستها ، بوجه من الوجوه .

* * *

وزيادة في التأكيد على هذه النتيجة أرى من المفيد أن أشير الى بعض الحقائق العلمية الثابتة : يقرر علماء الطبيعة – بناء على نتائج الابحاث الجيولوجية – ان مصر تؤلف « وحدة طبيعية » مع الجزيرة العربية وسوريا ووادي الرافدين . اذ من المعلوم ان وادي النيل مواز للبحر الاحمر . وهذا البحر ما هو الا امتداد عريض وعميق لوادي الشريعة فوادي العاصي الذي يمتد على طول بر الشام ، موازياً للبحر الابيض المتوسط ، كما ان خليج البصرة بمثابة امتداد عريض وعميق لوادي الرافدين ، وهذا الوادي – مع امتداده المذكور – ، موازٍ – تقريباً – للواديين المذكورين آنفاً . وكل هذه الأوضاع الجغرافية ، انما هي نتيجة حوادث جيولوجية متلازمة .

وهذه الأحداث الجيولوجية ، هي التي أوجدت في هذه المنطقة من العالم القديم افضل الشروط والبيئات لنشوء الحضارة البشرية وازدهارها . ومن المعلوم ان وادي النيل – مع وادي الرافدين – كان مهداً لأقدم الحضارات .

ان مراجعة المؤلفات الجغرافية والجيولوجية – التي لا تمت الى السياسة بصلة من الصلات تكفي للتأكد من أن افريقيا الشمالية

بوجه عام ، والبلاد المصرية بوجه خاص ، ترتبط بالجزيرة العربية وبالهلال الخصيب الذي يعلو هذه الجزيرة ، اكثر مما تنتسب الى سائر اقطار القارة الافريقية او القارة الاسيوية .

ونستطيع أن نقول : ان هذه الوحدة الطبيعية ، كانت من العوامل التي ساعدت على تأسيس الوحدة اللغوية والثقافية في هذه المنطقة ، التي تسمى باسم « العالم العربي » .

٢ – رابطة البحر المتوسط

ان ما قلناه آنفاً عن « الرابطة الافريقية » ، يغنينا عن اطالة البحث والحديث في سبيل حل مسألة « رابطة البحر الابيض المتوسط » .

ان الانتساب الى شواطيء بحر من البحار الكبيرة ، لم يكوّن « رابطة سياسية قوية » في يوم من الايام . والبحر الأبيض المتوسط نفسه ، صار مسرحاً لحروب كثيرة وطويلة ، قامت بين الشعوب التي تقطن شواطئه .

من المعلوم ان أطول وأفظع حروب الابادة التي عرفتها العصور القديمة ، كانت نشبت بين دولتين قائمتين على شاطئيه الشمالي والجنوبي ، في أواسطه التي يقترب فيها الشاطئان أشد الاقتراب .

في الواقع ، ان روما ، بعد ان دمّرت قرطاجة – وتخلصت من منافستها – استطاعت ان تستولي على جميع شواطيء البحر المتوسط ؛ واصبح البحر المذكور – في حقبة من التاريخ –

بحيرة رومانية . ولكن هذه الفتوحات الرومانية لم تستطع ان توحد الشعوب المنتشرة على شواطيء البحر المذكور ، قط . ولا نغالي اذا قلنا – بعكس ذلك – ان روما بسطت سيادتها على تلك الاقطار الشاسعة ، مستفيدة من تنوع هذه الشعوب واختلافها : فانها كانت تحكم سوريا – مثلاً – بفضل الفيالق التي تجندها من سائر أقطار الامبراطورية ؛ وبعكس ذلك كانت تستخدم الفيالق التي تجندها من سوريا في السيطرة على بلاد اخرى من انحاء الامبراطورية .

ولكن .. بعد تفكك أوصال الامبراطورية الرومانية ، لم يبق أثر لهذه « الوحدة القسرية » ، المستندة الى التنظيمات العسكرية . وكثرت المنافسات والحروب بين شعوب البحر المتوسط .

حتى الجزء الشرقي منه – وهو الجزء الذي تقع فيه مصر – ، قد صار مسرحاً لحروب كثيرة ، منذ معركة سالامين حتى موقعة نافارين .

واذا لاحظنا اليوم ، ان تركية واليونان وألبانيا ، ويوغسلافيا ، وايطاليا ، وفرنسا واسبانيا .. تطل على القسم الشمالي من البحر المتوسط ، كما ان انكلترة لها مواقع هامة فيه – من جبل طارق الى مالطة فقبرس – ... واذا تذكرنا التنازع السياسي والحربي الذي قام وتوالى بين هذه الدول والشعوب في الماضي القريب – منذ أوائل القرن الحاضر – ، بقطع النظر عما حدث قبل ذلك ... تأكدنا من أنه لا يوجد شيء

يمكن أن يسمى «رابطة البحر المتوسط» ، لا من وجهة السياسة ، ولا من وجهة الثقافة .

ولا شك في أن علاقة مصر – التي تطل على البحر الأبيض المتوسط – بالجزيرة العربية التي لا تجاورها الا في البحر الأحمر ، وبالعراق الذي لا يجاورها لا براً وبحراً ... أقوى وأعظم بكثير من علاقتها باليونان وايطاليا وفرنسا التي تمتلك أطول الشواطيء على البحر المذكور .

واما علاقة مصر بليبيا وبسائر بلاد المغرب ، فلا تستند الى رابطة البحر الأبيض المتوسط ، بل تقوم على روابط التاريخ واللغة والثقافة ..

وبناء على كل ما تقدم ، نستطيع ان نجزم بان فكرة «رابطة البحر الأبيض المتوسط» لا تستند الى أي أساس علمي صحيح .

لقد لجأ عدد غير قليل من كتاب فرنسا وساستها الى هذه الفكرة ، بغية إدامة حكمهم على المغرب العربي ، وبسط سيطرتهم على بلاد الشام .

انهم سعوا الى بث هذه الفكرة ، بغية تبعيد سكان البلاد المذكورة عن فكرة العروبة ، اذ قالوا لهم « لا علاقة بينكم وبين العرب . أنتم من شعوب البحر الأبيض المتوسط ، مثلنا .. » . وكرروا هذا القول ، بشتى اساليب الدعاية ووسائلها المقنّعة .

وإني أحذر المصريين من أن ينخدعوا بهذه الآراء السياسية المقنّعة ، ومن أن يفكروا في جعل شؤون « البحر الأبيض

المتوسط ، محوراً لسياسة مصر الداخلية أو الخارجية . [1]

***

وفضلاً عن ذلك كله ، ارى أن الفت الأنظار الى الحقيقة التالية ايضاً :

ان شواطيء البحر الأبيض المتوسط - بالنسبة الى مصر - لا تكتسب خطورتها الخاصة إلا من جراء وجود شواطىء مصرية طويلة في البحر الأحمر ، مع قصر المسافة التي تفصل البحر الابيض عن البحر الاحمر ، داخل الاراضي المصرية .

ولا أراني في حاجة الى القول بانه : لو لم يمتد البحر الأحمر بين الصحراء الشرقية في مصر ، وبين الحجاز في الجزيرة العربية .. لتضاءلت ، بل تلاشت مكانة مصر البحرية ، ولتغيرت مقدراتها تغيراً كلياً .

ولا نغالي اذا قلنا - بهذا الاعتبار - ان البحر الاحمر ، بالنسبة الى مصر ، ليس أقل أهمية من البحر الابيض ، بوجه من الوجوه .

٣ - الرابطة الاسلامية

لا شك في ان الرابطة الاسلامية أهم واقوى بكثير من الرابطتين اللتين ذكرتهما وناقشتهما آنفاً . لأن الرابطة الافريقية

(١) اني كنت ناقشت وفندت هذه الدعاية السياسية ، على ضوء الحقائق العلمية ، في محاضرة ألقيتها في النادي الثقافي ببيروت ، قبل نحو عشرة اعوام - راجع آراء وأحاديث في العلم والاخلاق والثقافة : الثقافة العربية وثقافة البحر الابيض المتوسط (ص ٤٣ - ٦١)

وجلاء .

ولكني أود أن ألفت الانظار الى خطأ شائع في هذا المضمار: يتوهم الكثيرون ، ان الثورات التي قامت على السلطنة العثمانية والخلافة الاسلامية ، منذ أوائل القرن التاسع عشر ، كانت تستهدف غايات دينية ، كما ان الحروب التي شنت عليها أيضاً كانت حروباً دينية .

ولكن قليلاً من التوسع والتعمق في استعراض الوقائع واستقصاء الدوافع يكفي للتأكد من ان ذلك لا يتفق مع حقائق الامور :

صحيح ، ان العناصر المسيحية في الروملي ثارت على السلطنة العثمانية مرات عديدة ، الى ان استقلت عنها تمام الاستقلال . ولكن ألم يحدث أمثال ذلك ، في الوقت نفسه، في العالم المسيحي أيضاً ؟ ألم تثر عناصر مسيحية أخرى ، على سلطات مسيحية مثلها ؟ أفلم يثر - مثلاً - الهنغاريون على النمسا ، والايرلنديون على انكلترا ، والبولنديون على روسيا .. ؟

صحيح ، ان روسيا حاربت السلطنة العثمانية مرات عديدة ، واقتطعت منها بلاداً واسعة ، المرة بعد الأخرى . ولكن ، ألم تحارب روسيا دولاً مسيحية أيضاً ؟ أفلم تستولي على بولندا - مثلاً - وتشترك مع النمسا وبروسيا في اقتسام أراضيها وازالتها من عالم الوجود ؟ كم من حروب طاحنة قامت بين دول مسيحية ، طوال القرن التاسع عشر ، منذ الغارات النابوليونية في أوائل القرن ، الى الحرب الامريكية الاسبانية في أواخر

القرن ؟ والحربان العالميتان الأخيرتان ، — في العصر الذي نعيش فيه — ألم تقوما بين دول مسيحية ؟

لا شك في ان ثورات اليونان والصرب والبلغار على الدولة العثمانية كانت ثورات عنيفة ودامية ، وكانت تجد تشجيعاً وتأييداً من بعض الدول الأوروبية . ولكن ، يجب أن لا يغرب عن البال ، بان الشعوب المذكورة كانت تتخاصم وتتقاتل فيما بينها أيضاً . واذا صارت ماكدونيا مسرحاً لاصطدامات دموية وقعت بين جيوش الدولة العثمانية وبين العصابات الثائرة ، فانها صارت في الوقت نفسه ميداناً لاقتتال الشعوب البلقانية ايضاً : كانت العصابات البلغارية تهجم على القرى اليونانية وتحرقها ، وبعكس ذلك ، كانت العصابات اليونانية تقوم بغارات على القرى البلغارية وتدمرها ؛ وكانت عصابات الطرفين تتسابق في ميدان الارهاب ، لاجبار الناس على الانحياز الى القومية البلغارية او القومية اليونانية .

في الواقع ان الدول البلقانية تكتلت سنة ١٩١٣ ، وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية ، ولكنها بعد ما انتصرت عليها وأجلتها عن ولاياتها الأوروبية ، اختلفت فيما بينها لاقتسام تلك الولايات ، وانقلبت كلها على بلغاريا ؛ ومهدت بذلك أمام الدولة العثمانية السبيل لاسترداد أدرنة ، بعد ان كانت خسرتها ، وتركتها لبلغاريا . .

***

ثم يجب ان لا نغفل عن هذه الوقائع التاريخية أيضاً : اذا

كانت بعض الدول المسيحية حاربت الدولة العثمانية ، فان دولاً مسيحية اخرى ساعدت الدولة المذكورة مساعدة كبيرة ؛ حتى انها خلصتها من الاضمحلال والانقراض عدة مرات ...

ولو حصرنا بحثنا فيما حدث منذ عصر واحد فقط دون أن نرجع الى تاريخ أبعد من ذلك – لوجدنا امثلة عديدة ، تشهد على صحة ما قلناه آنفاً :

من المعلوم أنه في سنة ١٨٥٤ ، اتفقت انكلترة وبروسيا وساردينيا مع السلطنة العثمانية ضد روسيا ، وأرسلت جيوشها وأساطيلها الى القرم ، لتحارب بجانب الجيوش العثمانية المسلمة ، ضد روسيا المسيحية .

ثم ، سنة ١٨٧٨ عندما استولت روسيا على اوروبا العثمانية ، ووصلت الى أبواب استانبول ، واضطرت « الباب العالي » الى التوقيع على معاهدة «سان استفانو» التي سلخت عنها جميع ولاياتها الأوروبية ... لم تعترف انكلترة بهذا الامر الواقع ، واتفقت مع المانيا على نقل القضية الى الميدان الدولي ؛ ومؤتمر برلين الذي عقد للنظر في الامر ، قضى على روسيا بالجلاء عن البلاد التي كانت احتلتها ، وأعاد الى دولة الخلافة معظم ممتلكاتها الاوروبية ، من تراقيا الى ماكدونيا والأبير ..

وفي الحرب العالمية الاولى ، حاربت الجيوش العثمانية بجانب الجيوش الالمانية والنمساوية .

وبعد انتهاء الحرب المذكورة ، عند ما قامت الحركات الاستقلالية التي تزعمها « مصطفى كمال » ضد اليونان ، ساعدت

روسيا تلك الحركات بالاسلحة والذهب ، ثم ساعدتها ايطاليا وفرنسا - ضد انكلترا بشتى الوسائل - تارة بصورة سرية ، وطوراً بصورة علنية . .

ان كل ذلك يدل دلالة قاطعة على أن سياسة الدول لم تقم على أساس العلائق الدينية أبداً .

في الواقع ان البلاد الاسلامية صارت مسرحاً للاستعمار الأوروبي والسيطرة الأوروبية ، أكثر من البلاد المسيحية .

ولكن السبب في ذلك ، ليس كون تلك البلاد اسلامية ، بل إنما هو كونها ضعيفة ومتأخرة في الاخذ بوسائل الحضارة العصرية . ولا حاجة الى القول بان ضعف شعب من الشعوب ، وتأخر بلد من البلاد ، مما يجعل الاستيلاء عليه واستعباده من السهولة بمكان . وذلك يشجع الدول القوية الطامحة ، على استعبادها ، ويكون بمثابة فتح الابواب لدخول الاستعمار ، ان لم نقل انه يكون بمثابة جذب الاستعمار وجلبه جلباً .

فان الدول القوية الناهضة تنزع الى التوسع والسيطرة على الدوام . وهي تكون مستعدة للاستيلاء على البلاد التي تبدو لها سهلة الاستعمار . وهي لا تتقيد في خططها التوسعية ، وأعمالها الاستعمارية ، بالدين الذي يدين به أهالي تلك البلاد .

ومن المعلوم ان ايطاليا ، لم تحجم عن الاغارة على الحبشة ، وعن محاولة استعمارها بقوة الحديد والنار ، مع ان الامبراطورية الحبشية مسيحية .

والولايات المتحدة الاميركية ، لم تتردد في مد يد الاتفاق

والمساعدة الى تركيا بكل سخاء ، مع ان الشعب التركي من اشد الشعوب تمسكاً بالاسلام .

اني أعتقد ان كل ما ذكرته آنفاً لا يترك مجالا للشك في ان العلائق السياسية لا تتبع العلائق الدينية ، بل انها كثيراً ما تسير في اتجاه قد يخالف اتجاهها كل المخالفة .

* * *

ولكن ، قد يقال لي : ان ما تقوله صحيح بالنسبة الى العالم الغربي ، ولكنه غير صحيح بالنسبة الى العالم الاسلامي . لان : « الاسلام دين توحيد » ، و « انما المؤمنون اخوة » .

وأنا أعرف بان عدداً كبيراً من الكتاب والمفكرين يقولون مثل هذا القول ، ويذهبون الى وجوب توجيه السياسة وفق مقتضيات العلائق الدينية . حتى ان عدداً غير قليل منهم يعتقد بإمكان قيام « اتحاد سياسي يشمل جميع الشعوب الاسلامية » ، ويدعو الى تحقيق هذا الاتحاد .

ولكني اقول : ان نصوص الأوامر والنواهي الدينية شيء ، وتفسير هذه الاوامر وتنفيذها بصورة فعلية شيء آخر .

وقد اختلف المسلمون حتى في تحديد الكثير من الواجبات الدينية ، ولا سيما في كيفية أداء تلك الواجبات اختلافاً كبيراً ، وتفرقوا الى مذاهب عديدة في هذا السبيل ؛ فكيف يؤمل ان يتفقوا في المصالح الدنيوية المتشابكة وفي الامور السياسية المعقدة؟

ان الامم الاسلامية كثيرة ومتنوعة ، ومنبثة في أقطار متباعدة ، من طنجة وتومبوكتو في الغرب ، الى أقاصي الصين

والجزائر الاندونيسية في الشرق .

في الواقع ان جميع الشعوب والامم الاسلامية ترتل السور القرآنية ، وتتوجه نحو الكعبة الشريفة خلال الصلوات ، ولكنها لا تتكلم بلغة واحدة ، ولا تفهم بعضها بعضاً .

ان كل امة من تلك الامم تجابه مشاكل اجتماعية واقتصادية وسياسية خاصة بها ، مختلفة عن مشاكل غيرها ، نظراً لاختلاف اوضاعها الجغرافية من ناحية ، واختلاف مجاري تاريخها من ناحية اخرى .

ويجب ان نلاحظ ان مصر لم تتحد مع نيجيريا وأندونيسيا — مثلاً — في أي عهد من العهود الاسلامية ، وفي اي دور من ادوار التاريخ العام ، ولو في حقبة قصيرة من الزمان . انها لم تتحد حتى في العصور التي كان الشعور الديني يسيطر خلاله على كل شيء ، ويطغى على السياسة في كل الاقطار . فكيف يجوز ان نعلق الآمال على اتحادها ، في هذا العصر ، الذي تعقدت خلاله العلائق الدولية تعقداً هائلاً ، وتباعدت عن الاعتبارات الدينية تباعداً كبيراً ؟

* * *

هذا ، ولو تركنا جانباً الديار الاسلامية البعيدة عن مصر — مثل أندونيسيا والباكستان — ، وحصرنا ميدان النظر والبحث في الامم الاسلامية المتقاربة المتاخمة بعضها لبعض — مثل العرب والترك والفرس — وجدنا انها ايضاً اختلفت في الماضي ، ولا تزال تختلف في الحاضر ، في الامور الثقافية وفي الاتجاهات

السياسية مع انها كانت اشتركت واشتبكت في حقبة غير قصيرة من التاريخ .

ان نظرة واحدة الى ما حدث في البلاد التي تقطنها هـذه الامم الثلاث ، منذ بداية القرن الحاضر ، تكفي لتقدير مدى هذا الاختلاف .

اني لا أرى لزوماً لذكر الامثلة التاريخية ، ولا للتذكير بما حدث خلال الازمات السياسية التي لا تزال تخوض غمارها ... ولكني ارى ان أدعو الى التأمل في الحقائق والوقائع التالية :

ان ميثاق سعد آباد الذي عقد بين اربع دول اسلامية ، بقي حبراً على ورق ، ولم يظهر له اي أثر فعال في الامور السياسية ولكن الكتلة العربية الآسيوية — التي تضم خمس عشرة دولة اثبتت وجودها ، واصبحت قوة دولية لا بأس بها ، مع انها لم تستطع ان تجمع كل الدول الاسلامية ، ولكنها استطاعت ان تضم عدة دول غير اسلامية .

* * *

اعتقد ان كل ما ذكرته آنفاً ، يدل دلالة قاطعة على انه لا يجوز لمصر ، ان تعتمد في سياستها الخارجية على الرابطة الاسلامية .

ويجب ان يلاحظ الجميع ، ان الاخوة الاسلامية شيء ، والاتحاد الاسلامي والسياسة الاسلامية شيء آخر .

٤ — رابطة العروبة

المصريون — بأجمعهم — يتكلمون ، ويتخاطبون ويتفاهمون

باللغة العربية ، فانهم « عرب » بهذا الاعتبار .

ولا مبرر للتساؤل فيما اذا كانوا « عرباً جنساً ودماً » . لان من الحقائق الثابتة علمياً بانه لا يوجد على الارض « أمة » ينحدر جميع افرادها من اصل واحد ، ويتحدرون بالدم. لا الفرنسيون فرنسيين دماً ، ولا الاتراك اتراكاً عرقاً ، ولا الروس روساً بالنسب . فلا وجه للتساؤل فيما اذا كان المصريون « عرباً جنساً ودماً » .

ومن المعلوم ان اللغة هي في الوقت نفسه اداة للتفكير وواسطة للتعبير عن الآراء والاحاسيس ، والوحدة في اللغة انما تنشأ من الوحدة في التاريخ ، وتؤدي الى الوحدة في الثقافة .

ولذلك نستطيع ان نقول : ان العروبة تكوّن أهم وامتن الروابط التي تربط المصريين بعضهم ببعض .

لان جميع المصريين — سواء أكانوا مسلمين او مسيحيين ، شرقاويين او صعيديين يتكلمون باللغة العربية ، ولا يوجد بينهم جماعة تبقى خارج نطاق هذه الرابطة .

* * *

هذا ، ويجب ان لا يغرب عن البال ان حدود اللغة العربية ، أوسع بكثير من حدود الدولة المصرية الحالية . انها لغة التكلم والتفاهم في بلاد واسعة الارجاء ، تمتد في غرب مصر وشرقها وجنوبها . هناك عالم عربي يمتد من جبال زاغروس حتى شواطىء المحيط الاطلسي . ومصر ، تقع في وسط هذا العالم العربي الفسيح ، وتشغل مكان القلب منه ، وتكوّن أكبر وأقوى الوحدات السياسية التي ينقسم اليها .

ولهذا السبب ، يترتب على مصر ان تخصص لشؤون هذا العالم الموقع الاول في سياستها الخارجية ، مع العلم بان هذه السياسة يجب ان تتحول – بالتدريج – من سياسة خارجية الى سياسة داخلية .

لان هذه البلاد العربية متصلة بعضها ببعض اتصالاً جغرافياً تاماً ، وقد سبق ان كوّنت – في الماضي – وحدة سياسية كبيرة وقوية جداً ، وهي معرضة الآن الى اخطار ومشاكل متشابهة ، فتستطيع ان تتحد مرة أخرى ، لتكوين دولة عربية كبيرة وقوية ايضاً .

فيجب على مصر ان تسعى وراء توحيد هذا العالم العربي ، وأن تكون أشد العاملين اندفاعاً في هذا السبيل .

* * *

إذن ، فنحن نستطيع ان نؤكد ان مصر عربية ، ومستقبلها مرتبط بمستقبل العروبة أشد الارتباط . فيترتب على المصريين ان يقولوا « نحن المصريين عرب ، مصر وطننا الخاص ، والعالم العربي وطننا العام ، مصر وطننا الأصغر ، والعالم العربي وطننا الاكبر » .

على المصريين أن يقولوا ذلك ويؤمنوا بذلك ، ويعملوا وفق ما يقتضيه هذا القول وهذا الايمان .

* * *

بقي علينا ، بعد الوصول الى هذه النتيجة – وتقرير عروبة مصر – أن ننتقل الى آخر المسائل في هذا المضمار .

هل يجب أن نقول : مصر أولاً ، أم نقول : العروبة أولاً ؟

لا مجال للشك في ان هناك قضايا اقليمية ومحلية بحتة ، تستلزم المعالجة كمسائل تخص مصر وحدها ، من دون البلاد العربية الاخرى . كما ان هناك قضايا بلدية بحتة ، تستلزم المعالجة كمسائل تخص مدينة من المدن أو منطقة من المناطق وحدها ، مثل مدينة القاهرة ، او منطقة الواحات ، أو مدينة طنطا ، مثلاً ...

ومما لا يحتاج الى برهان ، ان كل تقدم يحققه القطر المصري يعود بالنفع على جميع المدن والمناطق المصرية - ، ومن جملتها مدينة طنطا ومنطقة الواحات ، بطبيعة الحال .

وقد يحدث في بعض الظروف ، بعض الامور التي تستلزم تضحية مصلحة مدينة واحدة - او منطقة واحدة - لمصلحة القطر المصري بأجمعه ؛ ولكن ، هذه التضحية أيضاً ، تعود بالنفع الأكيد على تلك المدينة والمنطقة ، في مستقبل الايام .

وقياساً على ذلك ، نستطيع ان نقول : ان هناك بعض القضايا الكبرى ، التي تمس مصالح البلاد العربية بأجمعها ، فلا بد من معالجتها ، بنظرات تسمو فوق الاعتبارات الاقليمية . وقد يحدث في بعض الظروف بعض الاوضاع التي تستلزم تضحية مصلحة قطر عربي واحد ، لمصلحة مجموع البلاد العربية ؛ ولكن لا مجال للشك في ان المنافع التي تشمل البلاد العربية باجمعها - من جراء هذه التضحية - لا بد من أن تعود بالنفع الاكيد الى القطر المذكور ايضاً ، في مستقبل الايام .

وبناء على كل ما سبق ، يجوز لنا ان نقول : ان السياسة العليا في مصر – وفي سائر البلاد العربية – يجب ان تبنى على اساس « العروبة أولاً ... »

***

اني أعرف ان اختمار وانتشار هذه الفكرة في مصر ، سيستغرق بعض الوقت ، وسيتطلب بذل كثير من الجهود ، ولكني أعتقد بان ذلك لن يتأخر كثيراً .

لاني كنت ادركت العهد الذي كان المصريون المتنورون ينكرون فيه عروبتهم انكاراً باتاً ، فيقولون – بصوت واحد ، تقريباً : « مصر ، لا غير ... مصر ، بس ... » . ثم سعدت بادراك العهد الذي صار الكثيرون منهم يشعرون فيه بعروبتهم ، وان قالوا « مصر ، أولاً .. »

وبناء على ذلك ، لا شك في اني سأزداد سعادة بمشاهدة نتائج هذا الاختمار الفكري والتطور السياسي ، فسأسمع ازدياد اصوات الكثيرين الذين يقولون بان « المصرية والعروبة ... امران متلازمان .. »

كما أعتقد بأن هذا الاختمار ، عندما يصل الى نهايته المحتومة ، سيجعل المصريين يقولون « العروبة أولاً .. »

لاني اعتقد بانه سيأتي عهد تتحقق فيه فكرة الاتحاد العربي العام ، فيصبح عندئذ المصريون والسوريون والسودانيون والعراقيون .. بمنزلة الصعيديين والشرقاويين والاسكندرانيين الآن ...

فسيقول المصريون ، مع أبناء سائر البلاد العربية :
« العروبة قبل كل شيء ، وفوق كل شيء . »

٥ – النزعة الفرعونية

واما « النزعة الفرعونية » فـــلا أراني في حاجة الى اطالة الحديث فيها . لانها لم تنتشر كثيراً في وقت من الاوقات ، كما أنها فقدت معظم انصارها وجميع دعاتها في السنين الاخيرة .

فان العهود الفرعونية مدفونة تحت رمال الزمان ، منذ عدة آلاف من السنين . والمصريون الحاليون ، لا يفهمون شيئاً من لغة الفراعنة ، ولا يؤمنون بشيء مما كان يؤمن به هؤلاء ؛ فليس من المعقول ان يفكر احدهم في العودة الى تلك العهود البائدة ، والسعي وراء إحياء تلك الأموات المحنّطة .

لا شك في أنه يحق لأبناء مصر ان يفتخروا ويتباهوا بالامجاد التي كانت حققتها الحضارة الفرعونية ، في تلك العصور العريقة في القدم . لكنه يحق لأبناء البلاد العربية الاخرى ايضاً ان يفتخروا بالحضارة التي قامت في هذا الجزء من الوطن العربي ، منذ فجر التاريخ القديم . كما يحق للمصريين ايضاً ان يفتخروا بالحضارات التي نشأت وازدهرت في سائر انحاء العالم العربي ، مثل الحضارة السومرية في العراق ، والحضارة الفينيقية في سوريا ...

غير انه ... لا يجوز للمصريين ان يتنكروا للعروبة ، بحجة الارتباط بالحضارة الفرعونية .

ويجب على كل مصري أن يعرف حق المعرفة بان الحضارة الفرعونية - مثل الحضارات السومرية والاشورية والفينيقية - ماتت واندثرت ، فلا يمكن ان تعود الى الحياة ...

واما العروبة ، فانها تختلف عن ذلك كل الاختلاف ؛ انها لم تكن من نوع « الماضي المحنط » بل هي من نوع « الحاضر الحي » . ولا نغالي اذا قلنا : انها تتدفق حيوية ، منذ ان استفاقت من سباتها الطويل ...

انها لم تكن خاتمة لماضٍ سحيق ، بل هي فاتحة لمستقبل باهر .. وهذا المستقبل الباهر ، سيشهد قيام « الدولة العربية المتحدة » ، مع تقدم « الامة العربية الناهضة » نحو أعلى مراتب العلم والحضارة .

آراؤهم

ان الأجوبة التي انتهى اليها المتحدثون في ندوة « المصور » ، رداً على أسئلة الاستاذ فتحي رضوان ، كانت متنوعة ومتباينة جداً .

فقد قال الاستاذ عبد الرحمن عزام : نحن مصريون اولاً ، وعرب ثانياً ، ومسلمون ثالثاً . »

وقال الدكتور حسين كامل سليم : « نحن مصريون اولاً واخيراً » .

وقال الدكتور فكري أباظة : « نحن مصريون قدماء ، لا شيء غير ذلك » .

واما الدكتور عباس عمار ، فقد تطرق الى مسائل عديدة دون ان يتوصل الى جواب صريح .

والدكتور سليم حنا ، لفت الأنظار الى الناحية العالمية .

واما الدكتور منصور فهمي ، فقد صرح بانه دخل قاعة المناظرة ، وهو حائر الفكر امام الاسئلة ، ولكنه ازداد تبلبلاً بعد سماع كلمات المتناظرين .

واما الاراء التي سردها كل واحد من هؤلاء ، لتبرير الجواب الذي انتهى اليه ، فكانت اكثر تنوعاً من ذلك وأشد تبايناً .

اني لا أرى مجالاً – هنا – لنقل جميع تلك الآراء ونقدها بتفصيل وافٍ . ولذلك سأتناول بالبحث التفصيلي آراء اثنين من المتحدثين فقط . واما أحاديث بقية المتناظرين ، فسأكتفي بالاشارة الى الأهم والأبرز من الآراء التي تضمنتها .

١ – حديث عبد الرحمن عزام

١ – يبدأ الاستاذ عزام حديثه بتفنيد رأي « دعاة العزلة » ، قائلاً :

« الذين يريدون ان يعزلونا عن العالم ، يريدون لهذه البلاد محواً وقتلاً . فنحن لا نستطيع ان ننعزل عن الدنيا التي نعيش فيها ، وبصفة خاصة لا نستطيع بحال من الاحوال ان ننعزل عن العروبة التي نحن قلبها ومركزها . »

ولا شك في انه مصيب في قوله هذا كل الاصابة .

٢ – ثم يحاول الاستاذ عزام تعليل نزعة هؤلاء الدعاة، تعليلاً لا يخلو من الغرابة :

« اعتقد ان موضع النزاع الحقيقي الذي يثور في الأذهان ، عند بعض الناس ، ان الله اختص المصريين بمزايا لم يختص بها جيرانهم وان مشاركتهم لهؤلاء الجيران خسارة عليهم، وان هذا يثير الغيرة في نفوسهم » .

٣ – وبعد ذلك ، يعقب على هذا التعليل ، بمدحية ، يعدد

فيها مزايا مصر وخصالها :

« انا لا انكر ، ولا أحد ينكر ان مصر هي المدرسة الاولى للبشرية ، وان مصر فضلها الله على العالمين » .

« وكان مما ميز الله به هذه البلاد الميزة التي يريد أن ينكرها بعض الناس ، انها تستطيع أن تدعي ان لها قرابة بكل الناس . هذه ميزة . هذا فضل أعطاه الله لهذه البلاد بأن وضعها في وسط الدنيا لتستطيع ان تمدّ يدها للناس جميعاً . كما جعلها عربية تتكلم العربية ، فجعل بينها وبين نصف قارة افريقيا وغرب آسيا صلة متينة . »

« كما ان من فضل الله على مصر ان جعلها مسلمة ، وانها تعيش بهذا الاسلام ، وان الناس يظنونها اهلاً للاتباع فيأتونها من الغرب ومن الشرق ، يطلبون علمها . وهي تدعي انها الاستاذة والمدرسة والمعلمة ، فتجعل بهذا صلات مع العالم الاسلامي ، وهذا أيضاً من فضل الله على مصر » .

يلاحظ ان هذه المدحية مزوّقة بعدة كلمات جوفاء : لا ادري كيف يكون لمصر قرابة بكل الناس ؟ وكيف تعتبر هذه القرابة مزية ، تختص بها مصر ، من دون سائر البلاد ؟

ثم ، ما معنى وسط العالم ؟ أما كان اليونانيون ايضاً يعتبرون بلادهم وسط العالم ؟

٤ - ولكن الاستاذ عزام لا يقف في سبيل « مدح مصر » ، عند هذا الحد ايضاً ، بل انه يندفع في هذا السبيل الى اقصى حدود المغالاة ، إذ يقول :

« هذه هي ميزة مصر ، وهذا الذي جعل مصر باستمرار مركز إشعاع عالمي . فنحن هنا في القاهرة اذا غضبنا غضب الناس

لنا ، واذا رضينا رضي الناس من جميع الألوان والأفكار ، سواء أكانوا سوداً في افريقيا ، أو بيضاً في الشمال ، او مسلمين او مسيحيين ، او محترمين لثقافتنا أو معترضين بمدرستنا القديمة التي قامت منذ آلاف السنين ... »

ولا اراني في حاجة الى القول بان مضامين هذه العبارات مما لا يمكن ان يقره العقل السليم بوجه من الوجوه .

لو قال عبد الرحمن عزام : « اني اتمنى ان تصبح مصر مركز اشعاع عالمي ، في المستقبل » لما ترددت في الاشتراك بهذا « التمني » .

ولو قال : « اني اؤمن بان مصر ستصبح مركز إشعاع عالمي في المستقبل القريب » لما سمحت لنفسي بان تقول كلمة تضعف هذا الايمان .

ولكني ، عندما أسمعه يقول : « ان مصر صارت باستمرار مركز اشعاع » ، لا يسعني الا ان اقول : ان الاستاذ عزام ، إما لا يقصد معاني الكلمات التي يلفظها ، وإما انه لا يقيد كلامه وتفكيره بشيء من الحقائق الراهنة .

وأما قوله : « نحن هنا في القاهرة اذا غضبنا غضب الناس لنا واذا رضينا رضي الناس من جميع الألوان والأفكار ... » فهو من الأقوال التي تدخل في نطاق « المبالغات المضحكة » . لأن الأمة او الجماعة التي تستطيع أن تقول مثل هذا القول ، لا توجد على وجه البسيطة الآن ، كما أنها لم توجد في الماضي ، ولن توجد في المستقبل ايضاً .

٥ ـ وبعد العبارات التي نقلتها وناقشتها آنفاً ، يقول عبد الرحمن عزام :

« فكيف نضع هذه الميزة موضع التساؤل ، وكيف نبخسها لنتغزل في قريتنا باسم المصرية القديمة ؟ »

ان التفكير السليم يعطينا ألف برهان وبرهان على عدم جواز « انعزال مصر عن العالم العربي باسم المصرية القديمة » . ولكنه لا يسلم بوجود علاقة منطقية بين هذا القول وبين المقدمات التي سبقته ، والتي ناقشناها آنفاً .

٦ ـ بعد ذلك ينتقل الاستاذ عبد الرحمن عزام الى بحث المنافع المادية والمعنوية ، فيقول :

« ان قيادتنا الروحية لا شك فيها . ويجب ان نحافظ عليها . »

« هذه البلاد ـ كما قال الدكتور عباس عمار ـ بلاد نشأت فيها الحضارة الاولى ، وحملتها اجيالاً طويلة . فالصحارى حولها والبحر الابيض والبحر الاحمر ، فهي اشبه بجزيرة نما فيها الانسان الاول وحضارته تدريجياً . ثم اصبحت مطمعاً لكل الناس . فكان لا بد لها من ان تدافع عن نفسها .. وأنا هنا أتحدى أي رجل يفهم في الشؤون العسكرية يجرؤ على القول بان مصر تستطيع ان تدافع عن نفسها دون ان تكون حليفة لسوريا ... او ان مصر تستطيع ان تدافع عن نفسها ، اذا استولى على سوريا عدو ... او ان مصر تستطيع ان تدافع عن نفسها ، اذا حالفت سوريا عدواً .. نحن لا نستطيع ان نترك سوريا تفعل ما تشاء بنفسها ، لان الاستراتيجية الطبيعية لنا تقتضي ان تعيش سوريا في ساحتنا

الحيوية . بل ان لا تكون سوريا في نطاق اي دفاع يختلف عن الدفاع الذي نريده لمصر . وليست مصر وحدها . بل منطقة البحر الابيض المتوسط ، بل منطقة السودان ومنطقة ليبيا ... واذا اهتممنا بسوريا فلن نستطيع ان نتجاهل ما وراءها، وهكذا هي الطبيعة .

« فمصر لا تستطيع ان تدافع عن نفسها اذا كانت منعزلة عن جيرانها مستقلة عنهم ، تضع خطتها دون ان تجعلها في نطاق علاقاتها بجيرانها ... واليوم الذي تسقط فيه سوريا ، فلن تحارب مصر الا معركة واحدة » .

ان الاستاذ عبد الرحمن عزام محق فيما قاله في هذا الصدد ، من حيث الاساس. الا ان كلماته هذه لا تخلو من المآخذ الهامة:

اولاً ، انه يتكلم عن سوريا ، بصفتها جارة لمصر، ولم يشر الى عروبتها ، والى خطورة العروبة في هذا المضمار . وكان الاجدر به ان يشير الى ذلك بوجه خاص ، فيقول : « لو لم تكن سوريا عربية ، مثل مصر .. » .

ثم ، انه يعتبر سوريا « ساحة حيوية » لمصر ، فيقول « نحن لا نستطيع ان نترك سوريا تفعل ما تشاء بنفسها. لأن الاستراتيجية الطبيعية لنا تقتضي ان تعيش سوريا في ساحتنا الحيوية » .

ان تعبير « الساحة الحيوية » انما هو من التعبيرات التي تستعملها الدول الطامحة لتبرير اعمالها الاستعمارية والاستفزازية . فاعتبار سوريا ساحة حياة لمصر ، لا يتفق مع روح العروبة ولا مع ما يجب ان يصبو اليه العرب أجمعون .

٧ -- ويظهر ان فكرة « الساحة الحيوية » راقت لعـــزام كثيراً ، لانه يؤكد عليهـا في القسم التالي من حديثه ، عندمـا يتكلم عن المنافع الاقتصادية ايضاً :

انه يقول – بعد الفقرات التي نقلتها وناقشتها آنفاً – :

« وهناك الحياة الاقتصادية ، الحاجات والمنافع . وهـذه لا تثبت ابداً بل تتبدل وتتغير .. في مرة من المرات نحن نفيض على الناس ، وفي مرات اخرى يفيض الناس علينا ... فالحاجـــات الاقتصادية لا تثبت بل تتغير بتغير الحالة الزراعية ، وتتغير بتغير الوضع الصناعي والتجاري .. فهل حقيقةً البلاد العربية اليوم في حاجة الى مصر اكثر من حاجة مصر اليها ؟

« في الواقع نحن في اشد الحاجة الى البلاد العربيـة ... وانا كمصري اقول ان مستقبلنا نحن مرتبط بحاجتنا الى البلاد العربية اكثر من حاجة البلاد العربية الى مصر .. فنحن ننتج سنويـــاً اربعمائة الف مخلوق تلدهم مصر . أعني ان مصر في عشر سنين تلد مثل عدد سكان العراق او سوريا. بينما نحن نعيش في وادضيق.. وصدّقوني ان كل ما تسمعونه عن خرافة الاستيلاء على الصحارى ستثبت الايام انه خيال . ولكن حياتنا الآتية هي ان نكون شعباً صناعياً . ولا يمكن دوام مصر المستقبلة كدولة عسكرية تدافع عن نفسها عسكرياً ، ولا كدولة تستطيع ان تعول سكانها ، الا اذا تطورنا تطوراً صناعياً كبيراً .

« هذا التطور الصناعي يستلزم ان يكون لنا ساحة حيوية ؛ وهذه الساحة الحيوية هي اخواننا الذين يفهموننا ويميزوننا عـن

غيرنا . فنحن – اقتصادياً – في حاجة الى البلاد العربية التي ثبت انها اغنى بلاد العالم في المواد الخام اللازمة لصناعاتنا المستقبلة . كما انها السوق الوحيدة لحياتنا المستقبلة » .

ان الاستاذ عبد الرحمن عزام ، يصيب كبد الحقيقة ، عندما يتكلم « عن حاجة مصر الى البلاد العربية » ، ولكنه يتورط في اخطاء فادحة ، عندما يعود الى فكرة الساحة الحيوية ، ويعتبر البلاد العربية « سوقاً لتصريف المصنوعات المصرية ، ولاستيراد المواد الخام التي تحتاج اليها الصناعات المصرية » لان مايقوله في هذا الصدد ، لا يختلف عما قاله ويقوله الفرنسيون مثلاً لتبرير استيلائهم على الجزائر وتونس ، واستمرارهم في استعمار تلك البلاد . . .

وهذا القول ، إن دلّ على شيء – اكثر من دلالته على ارتجال الآراء دون رويّة – ، انما يدل على البعد عن التفكير القومي السليم ، وعن النظر السياسي الحكيم .

٨ – وبعد هذه الاحاديث المتنوعة ، يصل الاستاذ عبد الرحمن عزام الى صلب الموضوع ، ويجيب على اسئلة الاستاذ فتحي رضوان ، قائلاً :

« نحن مصريون اولاً ، وعرب ثانياً ، ومسلمون ثالثاً » .

ويعلمنا بذلك ، ان تفكيره القومي لم يوصله بعد ، حتى الى مرحلة القول بأن « مصر والعروبة أمران متلازمان » .

٩ – ولكن اغرب الآراء التي أبداها الاستاذ عزام في ندوة دار الهلال ، كان ما قاله عقب قوله « نحن مصريون اولاً ، وعرب ثانياً ، ومسلمون ثالثاً . . . » .

فقد قال : « ليس معنى مسلمين ، ان اخواننا المسيحيين ليسوا اخواناً لنا ، وليسوا شركاءنا ؛ بل اننا كما نفتح لهم آفاقاً يعيشون عليها ، نفتح للتاجر اللبناني آفاقاً في اندونيسيا ، وللمصري آفاقاً في الكويت والبلاد الاسلامية الاخرى . فأنا لا أضيره بشيء اذا قلت انني مسلم ، بل افتح له ابواب الحياة . فله دينه ولي دين .

« المسيحية ليست إلا من نبعنا ، ومن عقائدنا ، وصورة من صور حياتنا نحن ؛ فهي ليست غريبة عنا . نحن انشأناها وأوجدناها في هذه الساحة ، كما أوجدنا الاسلام ، وبعثنا كليهما الى العالم » .

لا شك في ان الاستاذ عزام ، عندما قال المسيحيون اخواننا وشركاؤنا عبر عن حقيقة لا يستطيع أن ينكرها أحد . ولكنه سلك مسلكاً غريباً جداً ، في إقامة البرهان على صحة قوله هذا ؛ لانه زعم « ان المصريين يفتحون للتاجر آفاقاً في اندونيسيا » ، ثم قال « المسيحية من عقائدنا وصورة من صور حياتنا ... نحن انشأناها وأوجدناها .. »

ولا اراني في حاجة الى القول ، بان هذه الآراء والمزاعم ، مما لا يمكن ان يسلم به أحد ، ما لم يخرج على حدود منطق الحقائق الراهنة .

ومن الغريب ان عبد الرحمن عزام ، يلجأ الى امثال هـــذه المزاعم التي لا تمت بأية صلة الى الحقائق الراهنة ، ويهمل الاستناد الى الاشتراك في الوطن واللغة والتاريخ ..

١٠ — بعد الفقرات التي ذكرتها آنفاً ، ينهي عزام حديثه بالكلمات التالية :

« فاذا كانت مصر تعتز بعروبتها ، فلها الحق . واذا كانت تعتز بأسلاميتها فلها الحق . واذا كانت تعتز بمسيحيتها فلها الحق . واذا كانت تعتز بفرعونيتها في هذه الحضارة الخالدة ، فانها لتعلو على الناس جميعاً ، فنحن مدرستهم الاولى . ونحن الذين أفهمناهم الحياة الروحية . وندعو الله ان يديمنا ملهمين لجيراننا وللبشرية ، كما ألهمناها من قبل » .

ان ما قلته آنفاً حول هذه الامور ، يغنيني عن التعليق على هذه الكلمات الختامية .

***

اني نقلت فيما تقدم ، كل ما قاله عبد الرحمن عزام في الندوة — كما نشرته مجلة المصور — ، دون أن أحذف منه شيئاً ، أو أضيف اليه كلمة .

إني جزأت الحديث الى اقسام عديدة ، لكي اعلق على كل قسم من هذه الاقسام على حدة ؛ الا اني حرصت على ان لا اغير شيئاً من ترتيب هذه الاقسام ، وراعيت تسلسلها الاصلي تمام المراعاة . كما اني حصرت تعليقاتي على الاقوال نفسها ، من غير ان اقول شيئاً عن قائلها .

اما ، وقد انتهيت من نقل الحديث ونقده — كما هو — ، فقد وجب علي ان اقول كلمة بالنسبة الى صاحب الحديث ايضا.

ان الاستاذ عبد الرحمن عزام ، كان اول « امين عام » لجامعة الدول العربية ؛ — انه شغل هذا المنصب الهام ، سبع سنوات متواليات .

ان ما قاله في الندوة ، يكتسب خطورة خاصة ، لهذا

السبب .

انه قال : « نحن مصريون اولاً ، وعرب ثانيـــاً ... » انه قال عدة مرات : « مصر والبلاد العربية » ، ولم يقـل « مصر وسائر البلاد العربية » .

وفضلاً عن ذلك ، انه اعتبر سوريا وسائر البـــلاد العربية « ساحة حياة » لمصر ، وسوقـاً لحياتها الاقتصادية .

ولا اراني في حاجة الى القول بان من يتولى الأمانة العـامة لجامعة الدول العربية ، هذه المدة الطويلة ، كان يجب ان ينظر الى الامور القومية بنظرات تختلف عن هذه النظرات الاقليمية اختلافـاً كبيراً .

اني من الذين يعتقدون بان لمصر مكانة خاصة وممتازة في العالم العربي ؛ واتمنى - بكل جوانحي - ان تعمل مصر في سبيل تحقيق الوحدة العربية ، ما عملته بروسيا في سبيل تحقيق الوحدة الالمانية ، وما عملتـــه « البياده مونته » في سبيل تحقيق الوحدة الايطالية .

ولذلك ارى من حقي ومن واجبي ان اسأل الاستـــاذ عبد الرحمن عزام - وجميـع مناصريه - : هل قال احد من بناة الوحدة الالمانية او الوحدة الايطالية ، ما يقوله عزام الآن ؟

هل كان يقول أحد من زعماء القومية في بروسيا « نحـــن بروسيون اولا ، والمان ثانياً .. » ؟

وهل قال احد من هؤلاء - مثلاً - ان « بافاريا ساحة حياة لبروسيا » ، او « ان ساكسونيا سوق للصناعات البروسية » ؟

ثم ، لو كان قال هؤلاء ، مثل هذه الاقوال، هل كان يمكن ان يحققوا ما حققوه ؟

ان تاريخ الوحدة الالمانية يعطينا اجوبة حاسمة ، على هذه الأسئلة :

ان زعماء الحركة القومية في بروسيا ، لم يقولوا في يوم من الأيام « بروسيا اولاً ، والمانيا ثانياً ... » بل كانوا يقولون دائماً « لا فرق بين بروسيا وبين سائر البلاد الالمانية » .

انهم كانوا يقولون : « بروسيا في خدمة الفكرة الالمانية » .. « رسالة بروسيا السامية هي تحقيق الوحدة الالمانية » .

كما ان جميع القوميين فى جميع البلاد الالمانية كانوا يقولون : « المانيا فوق الجميع » .

***

انى اعتقد ان حديث عبد الرحمن عزام يكوّن وثيقة تاريخية هامة بهذا الاعتبار . لانها تكشف الستار عن أهم وأعمق الاسباب في « فشل الأمانة العامة لجامعة الدول العربية » في أداء الرسالة القومية التي عهد بها اليها .

ولهذا السبب ، رأيت ان أنقل الحديث بحذافيره ، مع لفت الانظار الى مضامينه .

٢ - حديث الدكتور حسين كامل سليم

ان الحديث الذي ادلى به الدكتور حسين كامل سليم ، كان من أغرب الأحاديث . لأن القسم الاعظم منه ما كان يمت الى

مواضيع البحث باية صلة.. كما ان القسم الذي ينسجم مع مواضيع المناقشة، كان مشوباً بأخطاء فادحة.

اني انقل فيما يلي هذا القسم من الحديث:

« اني اؤمن تماماً بما قاله حضرات الزملاء الذين سبقوني الى الكلام، من اننا مصريون ومسلمون، وبعضنا مسيحي، وعرب، وافريقيون، ومن سكان البحر الابيض، وعالميون في نفس الوقت.. وليس في كل هذا تضارب.

« ولكن يجمل بنا ان نعلم: مم تتكون العناصر التي تخلق الدولة؟ هل هي وحدة اللغة؟ اذا قيل ذلك، فلدينا بلجيكا وفيها لغتان رسميتان، وكذلك سويسرا فيها ثلاث لغات رسمية. ومع ذلك فكل منها دولة بكل ما في هذه الكلمة من معان... وكذلك وحدة الدين ليست شرطاً لقيام الدولة. فبلجيكا والمانيا وسويسرا وكثير من الدول، ليست لها ديانة موحدة... ووحدة الجنس كذلك - بلا شك - ليست شرطاً ضرورياً. لأن التعمق في موضوع الجنس امر يبعدنا عن الحقيقة الى درجة بعيدة، فهو موضوع جدلي اذا قيس بالأبعاد.

« اذن ما هي العناصر الرئيسية التي تجعل المصريين او الانجليز مثلاً يختلفون عن غيرهم، اذا لم تكن اللغة، ولا الجنس، ولا الدين، هي العناصر الرئيسية. في رأيي انه التاريخ وانه الثقافة وانه المصالح المادية...»

اذا تتبعنا كل ذلك، قلنا من أهمية اللغة العربية في بلادنا: فقد كنا دولة قبل أن نسمع شيئاً عن العرب. وكذلك قلنا

من وحدة الديانة لاننا كنا دولة قبل أن يظهر الاسلام ... اذ ان مصر هي اقدم الدول ، كما يثبت التاريخ ذلك ... والعجيب في تاريخهاان وحدتها وحدودها لم تتغير في اكثر من خمسة آلاف سنة : فقد كانت تمتد دائماً حتى الجندل الثاني ، كما تشمل العقبة والعريش والحدود الغربية غير محددة بوضوح ثابت ..

« فكيف استطاعت هذه الدولة في هذا الوادي المحصور بين الصحراء والبحر أن يحتفظ بوحدته وحدوده دون تغير ، بينما حدود العالم كلها تغيرت ؟

« السبب واضح .. فهي دولة نمت نمواً طبيعياً ، وربط بينها نهر ما زال يجري صالحاً للملاحة في جميع جهاته تقريباً ، ويأتي بالماء في مواعيده المنتظمة . واذن فقد قامت فيها حكومة ، لتربط هذه المصالح ، وبذلك أصبحت دولة دائمة على الدهر .

« اذا كان هذا هو الوضع ، فنحن بلا شك ، مصريون اولا واخيراً .. ولكن هذا لا يعني ان ارتباطنا بغيرنا من الدول ليس مهماً . أو اننا ننطوي على أنفسنا . فليس هذا يمكن لأحد ان ينصح به » .

***

هذا ما قاله الدكتور حسين كامل سليم ، في مواضيع المناقشة الاصلية .

والآراء المسرودة في هذا القسم من الحديث ، تستوجب النقد ، من عدة وجوه :

أ) يقول الدكتور في بدء حديثه « نحن مصريون وعرب

وافريقيون .. و .. في نفس الوقت » . ثم يقول ، في نهاية هذا القسم من الحديث « نحن بلا شك مصريون أولاً وأخيراً » ، ولا ينتبه الى ما بين هذين القولين من عدم انسجام ، إن لم أقل من تناقض تام .

ب) – لا يفرق الدكتور بين مفاهيم الدولة والامة والسكان، ويعتبر « الامة المصرية ، وسكان مصر ، والدولة المصرية » في معنى واحد . ولذلك يقول : « إننا كنا دولة قبل أن نسمع شيئاً عن العرب » ، كما يقول : « مصر .. دولة دائمة على الدهر » . ويخالف بذلك كل ما هو ثابت في العلوم الاجتماعية والسياسية .

ج) – يدعي الدكتور ان « حدود مصر لم تتغير منذ خمسة آلاف سنة » . في حين ان نظرة واحدة الى صفحات التاريخ ، تكفي للتأكد من ان ذلك لا يتفق مع الحقائق الثابتة ، بوجه من الوجوه .

ففي التاريخ القديم ظل الوجه البحري منفصلاً عن الوجه القبلي ، مدة غير يسيرة . ثم ، بتوالي القرون ، صارت مصر جزءاً من امبراطورية روما ، فامبراطورية بيزنطة . بعد ذلك صارت جزءاً من الدولة الأموية فالدولة العباسية . ثم دخلت تحت حكم الدولة العثمانية .

حتى عندما أصبحت القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية ، كانت حدودها تمتد حتى المحيط الاطلسي من جهة ، وتشمل الشام والحجاز من جهة اخرى . وفي عهد الايوبيين ، وفي عهد المماليك كانت حدود الدولة تصل الى شمال حلب من ناحية ، وجنوب

الحجاز من ناحية اخرى .

فالقول ، مع ذلك ، بان «حدود مصر لم تتغير ، بينما حدود العالم كلها تغيرت» يخالف أثبت وأوضح حقائق التاريخ مخالفة صارخة .

د) – ولكن أهمّ وأخطر اقسام الحديث – من وجهة مفهوم القومية – هو ما يتعلق بتأثير اللغة في تكوين الدول والامم :

فأن الدكتور ينكر تأثير وحدة اللغة ، في خلق الدولة ، ويقلل من « أهمية اللغة العربية » في مصر ، ويحاول ان يبرهن على رأيه في هذا المضمار بوجود دولة في بلجيكا ، لها لغتان رسميتان ، وقيام دولة في سويسرا ، لها ثلاث لغات رسمية .

وكان يجب ان لا يغرب عن باله ان بلجيكا وسويسرا من مناطق تشابك اللغات ، ومن مراكز تقابل مصالح الدول العظمى .

ففي بلجيكا مثلًا ، شعبان ، يعيشان جنباً الى جنب ، ويتكلم كل واحد منهما بلغة تختلف عن لغة الآخر . وهناك قرى كثيرة ، تعيش فيها جماعة تتكلم باللغة الفرنسية ، وجماعة تتكلم باللغة الفلامندية . يجد الباحث هناك مدينة تتكلم اكثرية سكانها بالفرنسية ، وبالقرب منها مدينة بعكس ذلك – تتكلم اكثرية سكانها بالفلامندية .

فالاستناد الى مثل هذه الاحوال الشاذة لانكار تأثير اللغة في تكوين الدول والامم بوجه عام ، ولتقليل أهمية اللغة العربية في مصر بوجه خاص ، لا يتفق مع شيمة البحث العلمي بوجه من

الوجوه .

اني اشبه أمثال هذه المزاعم ، بمزاعم من ينكر قوة الجاذبية الأرضية بحجة صعود الدخان الى السماء ، ومن يقلل أهمية الهواء للحياة بحجة وجود الاسماك التي تعيش في الماء ، ومن ينكر تأثير النور استناداً الى وجود حيوانات تعيش تحت التراب وفي الظلام.

هـ) – ولكن الأغرب من كل ما تقـــدم ، هو ما يقوله الدكتور – بعد قوله : « إذن ، ما هي العناصر الرئيسية التي تجعل المصريين او الانكليز مثلاً يختلفون عن غيرهم ، إذا لم تكن اللغة ولا الجنس ولا الدين هي العناصر الرئيسية ؟ »

انه يجيب على هذا السؤال ، بهذا الرأي القاطع :

« في رأيي انه التاريخ والثقافة والمصالح المادية » .

والدكتور حسين كامل سليم ، بعد ان يخرج « اللغة » من عداد « العناصر الرئيسية » التي تجعل المصريين والانكليز يختلفون عن غيرهم ، يضع على رأس العناصر الرئيسية « التاريخ والثقافة ».

وقد فاته ان الثقافة ترتبط باللغة بأقوى الروابط وأوثقها : انها تتجلى أكثر ما تتجلى في اللغـة والادب ؛ تكتسب بواسطة اللغة ، وتحفظ بفضل اللغة ، وتنتقل من جيل الى جيل بواسطة اللغة . .

كما فاته ان أخطر آثار التاريخ ، واعمق جذوره ، تتجلى في اللغة : فان أهم واخطر التطورات التاريخية ، هي التي تؤثر في لغة القوم ، وتؤدي الى تغيير لغتهم .

ان شعب وادي النيل ، تعرّض الى احداث كثيرة جداً ،

وتطورات متنوعة جداً ، خلال هذا التاريخ الطويل . ولا مجال للشك في ان أهم هذه التطورات ، هو الذي ادى الى تغير لغتها ، هو الذي جعل جميع المصريين يهجرون وينسون لغاتهم القديمة ، ويدخلون في حوزة « المتكلمين باللغة العربية » لان هذا التطور كان بمثابة « خلق جديد » ، او « خلقة ثانية » ، أثّر في مجرى حياة المصريين أشد التأثير واعمقه .

ولذلك كله اقول : أن اخراج اللغة من عداد العناصر الرئيسية ، ووضع التاريخ والثقافة في رأس العناصر المذكورة ، لا يتفق بوجه من الوجوه ، مع الحقائق الثابتة التي ذكرتها آنفاً .

* * *

بعد الحديث الذي نقلته وناقشته آنفاً ، يخرج الدكتور عن ميدان البحث الاصلي ، ويتكلم طويلاً عن وسائل الاصلاح .

وبعد ذلك ، ينقل حديثه الى موضوع الجامعة العربية — متناسياً انها جامعة الدول العربية ، لا الجامعة العربية ، ويأخذ عليها — بحق — الاكتفاء « بالعواطف وبالكلام اللطيف المنمق الذي لا يقدم ولا يؤخر ، فيرجوها ان تعمد الى الصراحة ، وان تبين ان مشكلة فلسطين ليس لها حل في الوقت الحاضر » .

اني لا أرى لزوماً لاستفسار واستقصاء ما قصده الدكتور حسين كامل سليم من هذه الكلمة ، ولكني لا استطيع ان أمنع نفسي من توجيه هذا السؤال : لماذا لا يقحم رأيه في مشكلة فلسطين في مناقشة تحوم حول سؤال « من أنا .. ومن انت ..

ومن نحن ؟ »

* * *

وفي ختام حديثه يطلب الدكتور من « الجامعة العربية » أمراً آخر ، فيرجو « ان تنال الثروة الطائلة الكامنة في البلاد العربية - والتي أشار اليها استاذي عبد الرحمن عزام - اهتمام الجامعة العربية بها ، وان ترتبط هذه الثروة الكبيرة باقتصاديات دول الجامعة فيما بينها » .

ثم يوضح رأيه هذا ، بالتفاصيل التالية :

« لماذا نتكلم عن رؤوس الاموال الاجنبية ، وهناك رؤوس أموال من العملة الصعبة في المملكة السعودية وفي إمارة الكويت ، وفي غيرها من الدول المنتجة للبترول ؟ تلك الثروة التي لا يستغلها اصحابها استغلالاً كافياً . »

ثم يقتفي أثر عبد الرحمن عزام ، فيقول :

« وتعلمون حضراتكم كذلك انه يمكن ايجاد سوق للمصنوعات المصرية في هذه البلاد العربية ؛ وان تكون هذه المنطقة بمثابة سوق طبيعية اذا ما عُنيت الجامعة العربية بالناحية الاقتصادية ، وبذلك يكون للسلع التي يمكن تبادلها بين مختلف البلاد العربية شأن كبير » .

اني ايضاً اعتقد بضرورة توحيد اقتصاديات البلاد العربية ، لكي تكمل بعضها بعضاً ، وتكوّن قوة اقتصادية ودولية كبيرة . واطلب ذلك ، وأدعو الى ذلك ، بكل قوة ، وبكل ايمان .

ولكني اعتقد ان مثل هذا الطلب لا يحق لمن يقول « نحن

مصريون اولاً واخيراً » ، ولمن يقلل « اهمية اللغة العربية في مصر » ، بصراحة واصرار .

لأن امثال هذه الاقوال تخول أهالي تلك البلاد ايضاً ان يقولوا : « نحن سعوديون اولاً واخيراً » و « نحن كويتيون اولاً واخيراً » .

ان ما يرجوه الدكتور حسين كامل سليم - في هذا الصدد - لا يمكن ان يتحقق الا بعد ان يؤمن الجميع بان العرب امة واحدة ، وان المصريين عرب مثل العراقيين والكويتيين والسعوديين . . .

٣ - حديث الدكتور وليم سليم حنا

ان كلمة الدكتور وليم سليم حنا ، كانت احسن أحاديث الندوة ، من حيث الانسجام المنطقي ، والتفكير العلمي .

انه لم يقصد معالجة المسألة من جميع نواحيها ، بل صرح في مستهل حديثه بانه سيقصر بحثه على ناحية محدودة من الموضوع ، وهي « الناحية الانسانية الشاملة » . فقال : « اننا سواء اتصلنا بالعروبة وحدها او بالعوامل المختلفة التي مرت بها مصر في تاريخها الطويل ، فاننا لا نستطيع ان ننكر ، ولا ان نتجاهل اننا جزء من الانسانية جمعاء » و « اننا نعيش في القرن العشرين » .

ومع هذا ، فقد لفت الانظار الى عدة نقاط هامة ، بصورة اقوى مما تكلم فيها المتحدثون الآخرون ، الذين اشتركوا معه في ندوة دار الهلال .

اولا ، انه رد على دعاة العودة الى الفرعونية رداً حاسماً :

« نسمع كثيراً عن العودة الى الفرعونية . ولست ادري اي امة في التاريخ تستطيع ان تعود الى الوراء ، او ان تعود الى مرحلة خاصة من مراحل حياتها الطويلة ؟

« لنا ان نفخر بهذا الجزء من التاريخ المصري . ولكننا لا نستطيع ان نعود في حياتنا ، وفي تفكيرنا ، وفي اتجاهنا في المستقبل ، الى اي عصر من العصور ، سوى العصر الذي نعيش فيه الآن » .

وبعد ذلك تكلم عن اهمية اللغة والادب في حياة الامم بصراحة تامة ، حيث قال :

« من الناحية الاخرى لا نستطيع ان ننكر ايضاً ، ان المؤثرات الفعالة في المجتمع التي تعمل بالرغم عنا ، قائمة الآن . وهذه المؤثرات لا نستطيع ان نتجاهلها .

« ما هي هذه العوامل ، او تلك العوامل التي تتفاعل في الفرد وفي الجماعة ؟

« ولا ريب ان من اقوى العوامل التي تؤثر على الافراد وعلى المجتمع هو ذلك الاثر الذي يتركه الادب القائم في هذا الشعب . »

ثم قال بصراحة أتم من ذلك ايضاً : « ولكننا الان ، ونحن نتكلم اللغة العربية ، وادبنا هو ادب اللغة العربية ، لا نستطيع قطعاً ان نتجاهل أثر الأدب في تكويننا وفي تكوين حياتنا واتجاهنا ، ومشاريعنا ، وانفعالاتنا في حياتنا العملية » .

٤ - رأي الاستاذ فكري أباظه

قال الاستاذ فكري أباظه « نحن مصريون قدماء ، لا شيء غير ذلك » .

أظن ان الانتقادات التي وجهتها الى آراء الاستاذ عبد الرحمن عزام ، والدكتور حسين كامل سليم ، والفقرات التي نقلتها من حديث الدكتور وليم سليم حنا ... تغنيني عن التعليق على رأي الاستاذ فكري اباظه .

مع هذا ، أود ان ألفت الانظار الى كلمة وردت في حديث الاستاذ :

يدخل الاستاذ فكري اباظه العرب في عداد « الغزاة » الذين جاءوا الى مصر - مثل الاحباش ، والفرس ، والرومان والاتراك - ويشركهم في الحكم الذي اصدره على جميع هؤلاء .

أنا اعرف ان عدداً غير قليل من الكتاب المصريين يشاطرون الاستاذ فكري أباظة هذا الرأي . ولذلك ارى ان اقف قليلاً امام هذه القضية :

يجب ان لا يغرب عن البال ، ان مصر « تعربت » منذ قرون طويلة ، بكل ما في كلمة «التعرب» من معنى ؛ واصبح العرب بذلك أجداداً للمصريين اجمعين ، بالمعنى المفهوم من كلمة « الاجداد » في حياة الامم .

فالنظر الى العرب ، بنفس المنظار الذي ينظر به الى الاحباش والفرس والرومان والاتراك ، لا يتفق مع حقائق الحياة

الاجتماعية والقومية بوجه من الوجوه .

من المعلوم ان « الفرنك » كانوا من الشعوب الجرمانية التي استولت على فرنسا . ومع هذا، فان الفرنسيين، اليوم، ينتسبون اليهم ، فيسمون أنفسهم وبلادهم ، باسم هؤلاء . .

و كذلك آل « آنجل » ، كانوا من الشعوب الجرمانية التي استولت على الجزر البريطانية . ولكن اليوم، يعتبر البريطانيون هؤلاء اجداداً لهم ، ويسمون أنفسهم باسمهم ، قائلين : نحن الانجليز . . .

فكيف يسوغ لكاتب مصري الان ، أن يساوي بين العرب وبين الفرس والاتراك والرومان . . . بعد هذه القرون الطويلة التي مضت على « استعراب مصر » التام ؟

خاتمة

بعد التعليقات المسرودة آنفاً ، اعتقد انه يحق لي ان اقول : « العروبة ، أولاً ... »

أنا أعرف ان المصريين الذين يقولون ذلك قليلون الان . ولكني لا أشك في أن عدد هؤلاء سيزداد بسرعة .. كلما ازداد اتصال مصر بسائر البلاد العربية ، وكلما تعمق المفكرون والكتاب، في درس «مصالح مصر الحقيقية ، المادية والمعنوية »، وفي بحث « تاريخ مصر » بنظرات قومية واعيـــة ، متحررين من « الآراء القبلانية » الموروثة من العهود الماضيـــة ... التي وجهت تلك الابحاث أسوأ الاتجاهـــات ، وأبعدتها عن جادة الصواب .

United States of America
USA
UAS United Arabic States

نحو
الولاياتِ المتحدةِ العربية
و
الدّولةِ العربيّةِ الكبرى

١

مذكرة القدسي

في اوائل سنة ١٩٥١ ، قدم رئيس وزراء سوريا الدكتور ناظم القدسي ، مذكرة الى مجلس جامعة الدول العربية ، دعا فيها الدول المذكورة – بصورة رسمية – الى الشروع في العمل لتحقيق الوحدة العربية .

ان هذه المذكرة – التي اشتهرت باسم « مشروع القدسي » – كانت بمثابة ناقوس الخطر : انها شرحت الاخطار التي تحدق بالبلاد العربية ، من جراء بقائها منقسمة على نفسها ؛ ودعت ممثلي الدول المشتركة في مجلس الجامعة الى التفكير في الأمر بصورة جدية . والى تغيير الاوضاع الحالية بايجاد روابط اتحادية قوية .

ذكرت مذكرة القدسي الانواع الثلاثة للروابط الاتحادية : من الرابطة الكنفدرالية Confédération الى الرابطة الفدرالية Fédération فرابطة الاتحاد التام Union ؛ ثم صرحت بان سوريا ترجح «الاتحاد التام»، ومع ذلك تفسح المجال الى بحث الطريقتين الاخريين ايضاً ، بغية تجنب المشاكل التي قد تعترض طريق

الاتحاد التام ، في باديء الامر .

وفي الختام اكدت المذكرة على ضرورة الاسراع في اتخاذ التدابير الفعالة لسلوك السبل التي تؤدي الى الوحـــدة العربية واشارت الى الاخطار التي ستتعرض لها البلاد العربية – اذا بقيت على ما هي عليه من البلبلة – خلال الازمات العالمية القادمة ولا سيما من جراء استفحال الصهيونية .

* * *

لا شك في ان الدكتور ناظم القدسي ، عندما قدم مذكرته هذه الى مجلس جامعة الدول العربية ، كان يعمل بما توحيه اليه « فكرة العروبة » المتأصلة في بلاد الشام بوجه عام ، منـذ عدة عقود من السنين .

اذ من المعلوم ان سوريا كانت اشد البـــلاد العربية تشبعاً بالفكرة القومية ، وارسخها ايماناً بوحدة الامة العربية ، واسبقها اندفاعاً للعمل في هذا السبيل .

طبعاً ، انها لم تخل من رجال وجماعات نفعيين «لا وطنيين» ، يضعون مصالحهم الشخصية فوق كل اعتبار ، ولا يهتمون بالصالح العام على الاطلاق ؛ ولكنا نستطيع ان نؤكد ان الرأي العام في بلاد الشام ظل بعيداً عن النزعة الاقليمية ، وتواقاً الى الوحدة العربية ، بوجه عام .

ان الحركات والثورات التي قامت في تلك البلاد أولاً خلال العهد العثماني ، ثم بين الحربين العـالميتين ، تشهد على ذلك شهادة قاطعة .

وفضلاً عن ذلك كله ، من المعلوم ان - سوريا - خلال مشاورات الوحدة العربية التي جرت في الاسكندرية سنة ١٩٤٤ - دافعت عن فكرة الاتحاد التام ، واظهرت استعدادها للتضحية في هذا السبيل .

وقد صرح رئيس وزراء سوريا - المرحوم سعدالله الجابري - خلال المشاورات المذكورة « ان سوريا تريد ان تؤدي واجبها في هذا المضمار « على أكمل وجه » . فهي « تتقبل القيود كلها برغبة وايثار ، غير مشترطة شرطاً ، وغير محجمة عن بذل أية تضحية في سبيل تحقيق الاتحاد العربي » .

كما انه قال : « إذا كان الاتحاد مصدر قوة لغيرنا ، فهو لنا مصدر حياة ، نتطلع من خلاله الى البقاء والسلامة » .

وفي الأخير ، يجب ان يلاحظ ان سوريا هي الدولة الوحيدة التي أدخلت في دستورها مادة تنص على ان شعبها جزء من « الامة العربية » ، وعدة مواد تحتم على رئيس جمهوريتها ونوابها ان يقسموا على أنهم « سيسعون لتحقيق الوحدة العربية » .

ولذلك كله ، قلت : ان الدكتور ناظم القدسي عندما قدم مذكرته الى مجلس جامعة الدول العربية ، صار ترجماناً صادقاً للرأي العام السائد في بلاد الشام .

واستطيع ان اقول - فضلاً عن ذلك - انه عبر في الوقت نفسه عما يتوق اليه « دعاة العروبة » في مختلف البلاد العربية ، بوجه عام .

* * *

بعد ان اشرت الى مضامين مـــذكرة القدسي ودوافعها الأساسية يجدر بي ان اسجل هنا مصيرها ايضاً :

كيف قوبلت المذكرة في مجلس جامعة الدول العربية من ناحية ، وفي الصحافة العربية من ناحية اخرى ؟

نحن لا نعلم شيئاً عما دار من مـــذاكرات ومناقشات في مجلس الجامعة حول هذه المذكرة، بسبب سرية تلك المذاكرات، ولكنا نستطيع ان نجزم بانها انتهت الى اهمال الاقتراحات اهمالاً كلياً ، بدليل انها لم تعد الى بساط البحث في الاجتماعات التي عقدها المجلس ، بعد السنة المذكورة .

واما الصحافة العربية ، فنستطيع ان نلخص موقفها مـــن مذكرة القدسي بما يلي : معظم الصحـــف في سوريا والعراق والاردن وفلسطين رحبت بها ، ولكن معظم الصحف في لبنان وفي مصر ، بقيت بعيدة عن الترحيب . حتى ان اهمّ الصحـــف المصرية انتقدتها انتقاداً لا يخلو من المرارة .

فقد نشرت « الزمان » مقالة تنعت مشروع القـــدسي بـ « اليوطوبيا في السياسة العربية » ، ونشرت « المقطم » سلسلة مقالات تتضمن عشرات الاعتراضات ، ونشرت « اخبار اليوم» مقالة تشبه المشروع بـ « حلم الدولة العالمية » .

اني أرى من المفيد – في هذا المقام – ان انقل مـلاحظات « أخبار اليوم » بكاملها ، مع التعليق عليها ، فقرة بعد فقرة .

٢

مقالة مصطفى أمين

نشر الأستاذ مصطفى أمين ، في العـــدد الصادر يوم ١٩٥١/١/٢٧ من « أخبار اليوم » مقالة عن « مشروع القدسي » استهلها بالكلمات التالية :

« قدم دولة ناظم القدسي بك رئيس وزراء سوريا مشروعاً لانشاء دولة عربية موحدة ، من جميع الدول العربية . »

« وهو مشروع جميل ، كمشروع دولة عالميـــة واحدة ، وكتحويل الصحارى الى حدائق ، وكمشروع الضمان الجماعي . »

اني لا ارى بأساً في وصف الوحدة العربية بالحلم الجميل . لاني أعرف بان كثيراً من الأحلام الفكرية تسبق الحقائق الواقعية : قد يحلم البستاني بأثمار الاشجار التي غرسها ، ويحـــلم المهندس بالعمارة التي يضع تصاميمها ؛ وقد يحلم القائد بنتـائج الحرب التي يقرر خططها ، وقد يحلم الأديب بأبطال الرواية التي يبدعها ...

فلا بأس في أن يكون دعاة الوحدة العربية من الحالمين بما سيتم في مستقبل الأيام ..

ولكني لا أستطيع الا ان استغرب تشبيه حلم الوحدة العربية بحلم الدولة العالمية الواحدة .

فان الدولة العالمية تعني اندماج جميع دول العالم في دولة واحدة ، على الرغم من اختلافها الهائل في اللغة والتاريخ ، وعلى الرغم من الحروب الدموية التي قامت بينها والخصومات العنيفة التي تأصلت في نفوس شعوبها ..

انها تعني اتحاد المانيا مع فرنسا ، على الرغم من المنازعات الطاحنة التي قامت بينهما منذ عشرة قرون ، وعلى الرغم من الحروب التي تكررت خلال القرن الأخير وحده ثلاث مرات ، كما تكررت خلال السنوات الأربعين الاخيرة وحدها مرتين ، وكلفت الملايين من الضحايا وملايين الملايين من الخسائر ..

انها تعني اندماج روسيا واميركا ، بالاضافة الى المانيا وفرنسا وايطاليا ويوغوسلافيا والصين والهند واليابان .. الى آخر ما هنالك من دول كبيرة وصغيرة ، طاغية وعاجزة ... لتكوين دولة واحدة .

انها تعني تكوين « كائن حي فعال » من الحيتان والأفيال ، والذئاب والحملان ، والبراغيث والافاعي ، والعناديل والخفافيش ..

فكيف يجوز تشبيه حلم الوحدة العربية بحلم هذه الدولة العالمية ؟

فان شعوب الدول العربية كلها تتكلم بلغة واحدة ، ولجميع

تلك الشعوب تاريخ مشترك طويل . كلها دول حديثة العهد ، بكل معنى الحداثة : ان تاريخ ميلاد أقدمها لا يتقدم على تاريخ ولادة والدي تقدماً يذكر ، واذكر جيداً باني تعرفت الى اشخاص عديدين ، ولدوا قبلها . واما البقية فكلها من مواليد الامس القريب . كلها اصغر سناً ، ليس مني فحسب ، بل من محرر المقالة نفسه ايضاً ..

ولم يسبق ان قامت بينها حروب تركت في نفوس شعوبها خصومات وثارات ..

وحدودها لم تتقرر بالحروب التي قامت بينهـــا ، ولم تجبل بدماء ابنائها ، بل تقررت بمشيئة الدول الاجنبية التي استعبدتهـا واستعمرتها .

وفي الاخير ، لا يوجد بينها اي تضارب في المصالح العامة . بل ، بعكس ذلك ، كلها معرضة الى اخطار مشتركة ، ومهددة بطغيان عدو واحد .. فكلها في امس الحاجة الى التعاون الوثيق ، فالاتحاد التام .

فكيف يجوز ان نشبه حلم اتحاد هذه الدول العربية بحـــلم اتحاد دول العالم باجمعها ؟

وأما تشبيه حلم الوحدة العربية ، بحلم تحويل الصحارى الى حدائق ، فلا أرى بأساً فيه ايضاً . لاني أعـــرف – كما يعرف الجميع – ان كثيراً من الصحارى قد تحولت فعلاً الى حدائق غناء ، في مختلف انحاء العالم ، وفي البلاد العربية نفسها .

***

ويقول مصطفى أمين ، بعد ذلك :

« مشروع لا شك انه قد يتحقق ، اذا ارادته الشعوب ، ولكنه لن يتحقق ، مهما قررت الحكومات » .

ولكن ، من يقول ان الشعوب لا تريد تحقيق الوحدة العربية ؟ ومن يدعي ان ما تريده بعض الحكومات الآن ، لا يعبر عما تريده الشعوب ؟ ومن يستطيع ان ينكر ان ارادة الحكومات تسهل تحقيق ارادة الشعوب ؟

***

ويستمر مصطفى امين في سرد رأيه في مشروع القدمي بعد ذلك قائلا :

« هذا المشروع يكون عملياً ، لو جاء بعد انتصارنا في حرب فلسطين ، وبعد ان حاربنا صفاً واحداً كرجل واحد » .

اني ارى في هذه الكلمة منطقاً غريباً ، يعكس الامور رأسا على عقب :

ـ ان مشروع الوحدة العربية ، اصبح غير عملي ، لاننا خسرنا حرب فلسطين ؟ ولأن الدول العربية لم تحارب صفاً واحداً ، كرجل واحد ؟ » .

أفلا يحق لي ان اعكس هذه القضايا فأقول :

« ان تحقيق الوحدة العربية أصبح من أوجب الواجبات علينا ، لاننا خسرنا حرب فلسطين ، ولم نحل دون قيام دولة اسرائيل التي تهدد مستقبلنا جميعاً ، في عقر دارنا ، في سرة حياتنا .. »

« يجب ان نسرع في العمل لتحقيق الوحدة العربية ، لكي

نستطيع أن نحارب في المستقبل صفاً واحداً، كرجل واحد ...»

اني أكرر هنا ما كنت كتبته قبل نحو خمس سنوات :

– «اننا خسرنا حرب فلسطين ، لاننا كنا سبع دول ..»

واضيف الى ذلك الآن ، فأقول :

– فيجب علينا أن نتعظ من دروس حرب فلسطين، فنسعى لتكوين دولة عربية متحدة ، لكي لا نخسر في حروب المستقبل.

***

ويواصل مصطفى أمين تعليقاته هذه بقوله :

«كان هذا المشروع يلقى ترحيباً من الجميع ، لو ان تجربة الجامعة العربية قد نجحت في حدودها الضيقة ، فأردنا أن نوسع الحدود ، ونزيد الروابط قوة ومتانة . اما الآن ، فنحن أشبه برجل فشل في زراعة نصف فدان ، فيقترحون عليه أن يزرع ألف فدان ، وبذلك يضمن الثروة والقوة والجاه» .

ولكني أتساءل : هل كانت تجربة الجامعة «تجربة حاسمة» ذات دلالة قاطعة ، وهل كانت تجربة تستجمع جميع شروط التجارب العلمية والاجتماعية ؟

اني كنت قلت سابقاً : «ان مثل من يعتبر فشل جامعة الدول العربية دليلاً على بطلان فكرة القومية العربية كمثل من يعتبر عدم استفادة مريض من المرضى من العلاج الذي وصفه له طبيب من الاطباء ... دليلاً على بطلان الطب وعدم فائدة الاطباء (آراء واحاديث في القومية العربية ص ١٢)

اني اكرر ذلك هنا بمناسبة مشروع الوحدة العربية ،

ثم أقول :

ان العلماء لا يكتفون قط بتجربة واحدة . تصفحوا - مثلاً - حياة باستور الذي فتح أوسع الآفاق للطب الحديث ، تجدوا ان معارضيه كانوا يقومون بتجارب عديدة ، تؤدي الى نتائج تخالف ما كان توصل اليها باستور مخالفة صريحة . ولكنه كان يبحث عن اسباب فشل التجارب التي قام بها المعارضون ، ويقوم بتجارب جديدة ، تظهر عوامل الفشل التي تسربت الى تجارب هؤلاء . وتعددت التجارب وتنوعت من الطرفين ، الى ان توصل باستور الى « التجربة الحاسمة » Crucial التي لم تترك مجالاً لأي شك .

لو كان الباحثون والعاملون يكتفون في كل حين بتجربة واحدة، لما انشئت الحقول الزراعية، ولا وجدت معامل البحوث، ولما تحقق شيء من الخوارق التي تحققت في ميادين الطب والزراعة والصناعة ..

والتجارب في ميادين الاجتماع والسياسة ايضاً لا تختلف ، بهذا الاعتبار ، عما ذكرناه آنفاً :

لو اكتفى رجال الاصلاح بمحاولة واحدة، وتقاعسوا عن العمل ، لمجرد فشلهم في المحاولة الاولى ، ... ولو لم يثابروا على العمل في كل مرة ، مستفيدين من دروس المحاولة السابقة ، لما استطاعت البشرية ان تخطو خطوة واحدة في سبيل الاصلاح الاجتماعي .

ولو كان صناديد السياسة يتراجعون عن أهدافهم ، لأول

فشل يصيب اعمالهم ، لما استطاعوا ان يضمنوا لبلادهم شيئاً من التقدم والنجاح .

كم كانت طويلة سلسلة المحاولات التي قام بها الالمان ، قبل ان يتمكنوا من تحقيق الوحدة التي كانوا يحلمون بها ويعملون من اجلها ؟! وكم من محاولة فاشلة سبقت الحملة الاخيرة التي تكللت بالنجاح ؟!

فكيف يجوز لنا ان نعتبر تجربة الجامعة العربية « تجربة حاسمة » ، تحتم علينا التخلي عن فكرة الوحدة العربية ؟

هل كان الميثاق الذي انشأ جامعة الدول العربية ، من المواثيق التي تفي بالمرام ؟ أما كان يتضمن خمائر ضعف ، تشل الحركة ، وتعوّق النجاح ؟

ثم ، كيف طبقت أحكام « ميثاق جامعة الدول العربية » ؟ هل احسن التطبيق جميع المسؤولين عن تنفيذه ، ام أساءوا التطبيق ، عن قصد او عن غير قصد ؟

فكيف يجوز لنا أن نسلم بان ما حدث هو « كل ما يمكن ان يحدث » ، وان نقول « ليس في الامكان ابدع مما كان » ؟

اذا استعرضنا مواد الميثاق ، وبحثنا عما طبق منها وعما لم يطبق ، وجدنا ان المسؤولين عن تنفيذه تمسكوا بكل قواهم بالمواد التي كانت بمثابة خميرة الضعف ، واهملوا المواد التي كانت بمثابة بذور الاصلاح .

ان الواجب الذي يترتب علينا امام تجارب الماضي ، هو : ان نعكس الآية ، ونقضي على خمائر الضعف والشلل ، ونعنى بتنمية

بذور القوة والنشاط ، لا ان نعلن افلاس التجربة ، فنتقاعس عن العمل .

في الميثاق مادة (وهي المادة السابعة) تنص على ان « ما يقرره المجلس يكون ملزماً لجميع الدول المشتركة في الجامعة ، وما يقرره بالاكثرية يكون ملزماً لمن يقبله . »

وذلك يعني : ان كل دولة من الدول الموقعة على الميثاق تستطيع ان تخالف أي قرار من القرارات التي قد يتخذها مجلس الجامعة ، وان تمتنع عن تنفيذ ذلك القرار ، ولو كان قد صدر باجماع سائر الدول الموقعة على الميثاق والمشتركة في الجامعة .

وقد تمسك المسؤولون بنصوص هذه المادة ، بكل ما لديهم من قوة ، ولذلك اصبح مجلس الجامعة محروماً من كل قوة حقيقية .

ولم تقم الى الآن اية محاولة لمعالجة هذا الوضع ، مع ان في الميثاق مادة تفتح الباب لاصلاح الاحوال :

فان المادة التاسعة عشرة من الميثاق تنص على انه « يجوز بموافقة ثلثي دول الجامعة ان يعدل هذا الميثاق ، وعلى الخصوص لجعل الروابط بينها امتن واوثق » .

ولكن الدول العربية لم تعبأ بهذه المادة ، ولم تقدم على تعديل اية مادة من مواد الميثاق « لجعل الروابط بينها امتن واوثق » .

وهنالك امر اهم من كل ما سبق :

فان المادة التاسعة من الميثاق تنص على ما يلي :

« لدول الجامعة العربية الراغبة فيما بينها في تعاون اوثق وروابط اقوى مما نص عليه هذا الميثاق ، ان تعقد بينها من الاتفاقات

ما تشاء ، لتحقق هذه الاغراض » .

ولكن .. المسؤولون لم يلتفتوا الى هـذه المادة ابـداً ، بل تناسوها تماماً ، حتى ان بعضهم أوصل الامر الى حد استنكارها ضمناً ، ومحاربتها ايضاً ...

ولذلك كله ، أعود فأسأل مرة اخرى : كيف يجوزلنا ان نعتبر عدم نجاح تجربة الجامعة العربية ، بمثابة « تجربة حاسمة » ، يجب ان تمنعنا عن السعي وراء « تزييد الروابط قوة ومتانة » ؟

واما انا ، فاعتقد ، بعكس ذلك ، ان تجربة الجامعة العربية تدل دلالة قاطعة على وجوب « تقوية الروابط وتوثيقها » بكل الوسائل .

***

قبل ان انهي تعليقاتي على هذا القسم من مقالة مصطفى امين ، اود ان ابدي ملاحظة صغيرة ، على الفقرة الاخيرة منه :

« نحن اشبه برجل فشل في زراعة نصف فدان ، فيقترحون عليه ان يزرع الف فدان . »

ولكني اسأل : افلا يمكن ان ينجح رجل من الرجال في زراعة الف فدان ، بعد ان يفشل في زراعة نصف فدان ، في بعض الظروف ؟

اولاً ، يجب ان نلاحظ ان الفشل في زراعة الـ « نصف فدان » قد يكون ناتجاً عن اسباب عديدة ومتنوعة : قد يكون الرجل جاهلًا لأصول الزراعة بوجه عام ، وقد يكون جاهلًا لشروط زراعة الصنف الذي حاول ان يزرعه ؛ وقد تكون التربة نفسها

غير صالحة للزراعة بوجه عام ، ولزراعة ذلك الصنف بوجه خاص، وقد تكون في حاجة الى الاستصلاح ، بصورة من الصور التي يعرفها متخصصو الزراعة .

ولذلك ، نستطيع ان نقول : ان مجـــرد فشل الرجل في الخطوة الاولى من اعماله الزراعية ، لا ينفي احتمال نجـــاحه في ظروف أخرى ، وبمقياس اوسع .

ثانياً ، يجب ان نلاحظ ، ان الاقدام على زراعة الف فدان، يكون – في بعض الظروف – اضمن للنجاح من زراعة نصف فدان : فاننا اذا حاولنا ان نزرع نصف فدان ، على جبل المقطم او في وسط الصحراء – مثلاً – ، لا يمكن ان نصل الى نتيجة مثمرة ، لان نصف الفدان لا يمكن ان يدر علينا بمحصول يقابل ما يجب ان ننفقه من الجهود والاموال ، لاجل تركيب الآلات الرافعة ، وإنشاء الاقنية اللازمة لايصال الماء الى تلك المزرعة . ولكننا اذا اردنا ان نزرع آلاف الفدادين، وهيأنا الوسائل اللازمة لذلك ، نجحنا في الامر الى اقصى حدود النجاح ...

ولذلك كله ، استطيع ان اقول ، بدون تردد ، ان التشبيه الذي لجأ اليه كاتب المقال في هذا المضمار ، لايؤيد نظرته للأمور، بوجه من الوجوه .

اني لا اقول ذلك ، لظني بان أمور الجـــامعة العربية تشبه قضايا الزراعة تمام الشبه ؛ ولكـــني اقول ذلك ، لأجرّح رأي الكاتب بنفس السلاح الذي استعمله في هذا المقام .

***

بعد العبارات التي نقلتها آنفاً يقول مصطفى أمين ما يلي :

« اننا يا صاحب الدولة نتمنى ان يجيء اليوم الذي يكون العرب فيه اقوى دولة في العالم . ولكن هذا لن يجيء كما قلنا بجمع الأصفار في كتلة واحدة ، وانما يجيء بتكوين آحاد قوية ، تستطيع ان تكوّن باجتماعها عدداً محترماً » .

اني كنت جعلت هذه القضية موضوع بحث خاص ، نشرته قبلاً ، وأدرجته في هذا الكتاب ، تحت عنوان « أصفار سعد زغلول » .

لا أرى لزوماً لتكرار ذلك البحث هنا ؛ فأكتفي بلفت النظر الى النقاط الرئيسية منه :

أ – لا يجوز ان نعتبر الدول العربية أصفاراً .

ب – يجب ان نعرف ان بين الاصفار والاحاد التامة ، كميات لا تعدّ ولا تحصى .

ج – ان الاجتماع ، لا يشبه الجمع .

د – ان الاتحاد ، لا يعني ضم قوة دولة ما الى قوة دولة اخرى فاخرى ، انما يعني تكوين منظمة جديدة ، تنبض بحياة خاصة ، وتولد قوى جديدة .

* * *

بعد الفقرات الآنفة الذكر ، ينهي مصطفى أمين مقالته بحديث طويل ، عما تحتاج اليه البلاد العربية ؛ وقد رأيت من المفيد ، ان انقل فيما يلي ، هذا القسم من المقالة ايضاً :

« ولا نظن أن قوة الشعوب بعدد سكانها ، وإنما قوتها بقوة

رجالها : فقد بقيت الهند بسكانها الثلاثمائة مليون ، محكومة مستعبدة مقهورة عشرات السنين ، الى ان تقدم لقيادتها غاندي وضرب لها المثل ! بدأ بنفسه ، وتغلب على شهواته ، ليتغلب على شهوات الشعب ! واحتقر المنصب والسلطان ، ورفض القصور والمجوهرات ! ورأى ان يعيش مع الشعب كأقل فرد من افراده . ونشر دين الحرية بين العبيد ! ونادى بالاستقلال بين المستعبدين ! وما لبثت دعوته ان حطمت القلاع ، وزلزلت اعظم امبراطورية في التاريخ . فقد اختفى الاقيال والمهراجات ، ليتحرر العبيد !

« اننا اليوم في حاجة الى هذا الرجل يا صاحب الدولة. رجل عار يمثل الشعب العاري . رجل بسيط يقود الشعب البسيط ! رجل يرفض الحكم ، ويأبى ان يعلو على اجساد الفقراء والمساكين. ان هذا الرجل وحده ، هو القادر على انشاء الدولة الكبرى التي نريدها . هذا هو الذي يحوّل الاحلام الى الحقائق ، ويخلق في الشعوب الايمان بحقوقها ، ويدفعها الى التضحية في سبيل امانيها !

« نريد رجلاً يقود الشعوب العربية الى فجر جديد . لا طغيان فيه ولا استبداد ، ولا ظلم ولا استغلال ، لا انانية ولا محسوبية ولا رشوة ولا استغلال نفوذ !

« لو ان رجلاً واحداً صغيراً قزماً يحمل هذا العلم ويسير به لسارت وراءه الملايين .

« ولكننا لو رأينا هذا العلم في يد سبع حكومات ، لما وجدنا رجلاً واحداً يسير وراءها !

« ان الدول لا تقام بجرّة قلم ، وانما تقيمها حركات قومية موحدة . حركات مؤمنة ، ليس فيها اطماع حكام ولا مناورات حكومات ،

« اننا على ثقة من انك مؤمن برسالتك. ولهذا رأينا ان نقول لك ما تؤمن به الشعوب العربية كلها ! »

***

لقد نقلت هذا القسم من مقالة الاستاذ مصطفى أمين ، من غير ان احاول تجزأته والتعليق عليه فقرة ففقرة ، كما فعلت في اقسامها الاخرى .

ذلك لاني لاحظت ان الاراء المسرودة فيه متداخلة ومتشابكة ، كما وجدت ان معظمها لا يمت الى الموضوع الاصلي بصلة .

لا شك في ان العبارات التي نقلتها آنفاً تتضمن عدة آراء صائبة ، وكثيراً من التمنيات الحماسية . غير انني كنت اتمنى ان لا تُحشر هذه الآراء والتمنيات ، في مقالة تحوم حول الوحدة العربية .

ويظهر من مجموع ما جاء في هذا القسم من المقالة ، ان المحرر لا ينكر امكان قيام « دولة عربية متحدة » ولكنه يعلق ذلك على ظهور « رجل عظيم » وقائد زعيم ، على شاكلة غاندي الشهير . ويقول ان مثل « هذا الرجل وحده، هو القادر على انشاء الدولة الكبرى » التي نريدها . و « هو الذي يحوّل الاحلام الى حقائق ، ويخلق في الشعوب الايمان بحقوقها، ويدفعها الى التضحية في سبيل امانيها » .

اذا كان الامر كذلك ، فلماذا بدأ مصطفى امين مقالته بتلك الملاحظات التي تسخّف مشروع الوحدة العربية ، وتثبط عزائم الذين يدعون اليها ، ويعملون في سبيل تحقيقها ؟

وأما أنا ، فاعتقد ان الرجال العظام – والقادة الزعماء – لا يظهرون عفواً ، انما ينشأون نتيجة اختمار شعبي عميق ، ويستندون الى القوى الكامنة في الشعب ، ويستفيدون من الظروف الملائمة للقيادة والزعامة .

فلا يجوز لنا ان نتقاعس عن العمل في سبيل «تحويل الاحلام الى حقائق» وبث الايمان في الشعوب و «دفعها الى التضحية» في هذا السبيل ، انتظاراً لظهور «الرجل العظيم» الذي يصفه لنا مصطفى امين .

ان ذلك يكون بمثابة الامتناع عن العمل ، بأمل تحقق معجزة من المعجزات الالهية ، او قيام «المهدي المنتظر» .

اعتقد بانه يترتب على كل منا ان لا ينقطع عن العمل في سبيل النهضة القومية والوحدة العربية ، بكل ما لديه من قوة ، حتى ولو كان من المؤمنين بقرب ظهور «الرجل العظيم» . لان هذا العمل هو الذي يمهد السبيل – ويهيىء الجو – لقيام الزعيم المرتقب .

واما كتابة امثال هذه المقالات في الجرائد الكثيرة الانتشار – مثل جريدة «اخبار اليوم» – واشاعة الرأي القائل بان «الوحدة العربية حلم جميل مثل حلم الدولة العالمية الواحدة» ، وان التفكير في الوحدة العربية اصبح غير معقول «بعد نكبة فلسطين» ... فلا يساعد على ذلك بوجه من الوجوه .

استدراك

اني كنت احتفظ بمقالة مصطفى أمين بين أوراقي ، كوثيقة تبين اتجاهاً من الاتجاهات السائدة في الجرائد المصرية ، حيال قصة « الوحدة العربية » . وكتبت التعليقات المنشورة آنفاً ، في الصيف الماضي ، عندما تفرغت لتسويد هذا الكتاب .

ولكن اليوم – يوم ١٣ / ١١ / ١٩٥٤ – فوجئت بمقالة قرأتها في « أخبار اليوم » بتوقيع مصطفى امين نفسه تحت عنوان « بعد عشر سنوات » .

المقالة مكتوبة بمناسبة مرور عشر سنوات على تأسيس الجريدة يتخيل كاتبها المقالة التي ستصدر فيها بعد عشر سنوات ، اي في اواخر سنة ١٩٦٤

تبدأ المقالة المتخيلة بهذه الكلمات :

« ان فكرة الولايات المتحدة العربية بدأت تتحقق ... بعد أيام ستجري الانتخابات لانتخاب أول اعضاء برلمان عربي ... »

ان قراءة هذه المقالة في اخبار اليوم كانت لي مفاجأة سارة

جداً . لانها أظهرت بكل وضوح وجلاء ، التطور العظيم الذي حدث في موقف مصطفى امين من قضية الوحدة العربية في مدة لا تقل عن اربع سنوات !

اني اسجل هذا التطور المشكور، من غير ان استغربه. لاني كنت اؤمن ايماناً راسخاً - منذ عدة عقود من السنين - ، وكنت قد اعلنت ايماني هذا عدة مرات في عدة مناسبات - ، بأن مصر ستشعر بواجبها الطبيعي ورسالتها القومية .. عاجلًا او آجلًا ، وستندفع نحو « الفكرة العربية » بقوة وشدة ..

والتطور الذي لاحظته الآن ، في كتابات مصطفى امين حول « فكرة الولايات المتحدة العربية » ، جاء مؤيداً لما كنت آمنت به منذ مدة طويلة .

ولا اشك في انه كان للثورة المصرية اليد الطولى في تسريع هذا التطور السعيد ...

الى مَن يقول : «مِصرُ أوّلاً»

(بمناسبة المقالة المنشورة في روز اليوسف
في ٢٨ ديسمبر ١٩٥٣)

حول

الوحدة العربية

حضرة السيد احسان عبد القدوس المحـــترم ، رئيس تحرير روز اليوسف الغراء .

قرأت باهتمام بالغ ما نشرتموه اخيراً ، في سبيل الدفـاع عن سياسة « مصر اولاً » .

اني لا اعترض على من يقول « مصر اولاً » . لاني أعتقـد اعتقاداً جازمـــاً بان كل من يفكر في مصالح مصر الحقيقية – تفكيراً مقروناً بالتبصر والتعمق والاحاطـــة – يصل في آخر الامر الى الحكم بان مصر عربية ، وبانها تقع في موقع القلب من جسم العالم العربي ، فيجب عليها – والحالة هذه – ان تسير على سياسة عربية ، فتسعى الى توحيد العرب بصورة فعلية .

ولذلك ، لن أنتقدكم عـــلى قولكم « مصر أولاً » ؛ انمـــا سأنتقدكم على بعض الآراء التي سردتموها والقضايا التي اثرتموهـــا خلال تفسير وتبرير هذا القول :

١

لقد قلتم في مقالتكم الاخيرة : « .. انا مؤمن بالوحدة العربية » .

ولا اراني في حاجة الى القول بانني سررت سروراً عظيماً من اعلانكم هذا الايمان بصورة صريحة . ولكن ... لا اكتمكم بانني صدمت صدمة قوية عندما قرأت ما كتبتموه عقب هذه العبارة ، اذ قلتم : « وأنا مؤمن أيضاً بالوحدة الافريقية ... ومؤمن ثالثاً بالوحدة العربية الاسيوية والافريقية الأسيوية ... وايماني هذا ايمان واقعي ، لا ايمان عاطفي ... »

واسمحوا لي ان اسألكم : هل انتم تؤمنون حقيقة بالوحدة الافريقية والوحدة العربية الاسيوية الافريقية ... بالمعنى المفهوم من كلمة الوحدة ؟

وهل تقولون حقيقة بامكان قيام وحدة بين مصر والهند واندونيسيا والحبشة و ... مثلاً ؟

واذا كنتم تقولون بذلك ، هل يتساوى ايمانكم بالوحدة العربية مع ايمانكم بالوحدة الافريقية ، والوحدة الافريقية الاسيوية ؟

وأما أنا ، فأقول بكل صراحة : اني من المؤمنين بالوحدة العربية ايماناً لا يتزعزع ، ولكني لست من المؤمنين بالوحدة الافريقية أو الوحدة الافريقية الآسيوية أبداً . بل بعكس ذلك . اني أعتقد اعتقاداً جازماً بأن الوحدة الافريقية ، والوحدة العربية الاسيوية ، والوحدة الافريقية الاسيوية .. كلها ضرب من

ضروب المستحيلات التي لا يجوز لنا ان نضيع اوقاتنا وجهودنا بالسير وراءها والعمل من اجلها .

نعم ، اني اسلم بانه من الممكن ، بل من الواجب ، ان تتعاون مصر – وسائر البلاد العربية – في الميـــدان الدولي مع الهند ومع الباكستان ، ومع اندونيسيا .. ومـــع كل شعب يرسف تحت اغلال الاستعمار ، وكل دولة استقلت حـــديثاً ولم تنس بعد ما قاسته من استبداد المستعمرين .. واني اسلم بانه من الواجب ان ينتظم ويتقوى هذا التعاون ، حتى يصل الى درجة التعاهد والتحالف ؛ ولكني لا اسلم قط بإمكان قيام وحدة بين مصر – وسائر البلاد العربية – وبين تلـــك الدول الافريقية الأسيوية . . .

لاني اعرف ان التعاون – باشكاله ودرجاته المختلفة – من التآزر ، والتكتل الى التعاهد والتحالف – شيء ، والوحـدة او الاتحاد شيء آخر .

واسمحوا لي ان اقول : إن الايمان بالوحـدة العربية يصبح ايماناً هزيلاً ومهلهلاً ، إذا ما اختلط وتساوى مع الايمان بالوحدة الافريقية والاسيوية .

أنا لا اعترض عليكم عندما تقولون « مصر أولاً » ، ولكني اعترض عليكم بشدة عندما اراكم تساوون البلاد العربية مع البلاد الافريقية والاسيوية الاخرى ، في امر الوحدة والاتحاد .

٢

وتقولون : « أطالب بالوحدة مع العراق ، لا لأن أهله مسلمون ،

ولا لأنهم يتكلمون العربية ، ولا لانهم عرب ، بل لان بيننا وبينهم مصالح مشتركة ، تستطيع ان تربطنا الى الابد . . »

وأنا اشكركم على مطالبتكم بالوحدة مع العراق ، وعلى تصريحكم بانه من الممكن « ان ترتبط مصر مع العراق ارتباطاً أبدياً » .

ومع هذا ، أود ان اسألكم : ما هي هذه المصالح المشتركة التي تستطيع ان تربط مصر مع العراق الى الابد ، حسب تعبيركم السديد ؟ ارجو ان تتوسعوا وتتعمقوا في بحث هذه المصالح ، وتستعرضوها واحدة فواحدة ، ثم تقولوا لي : هذه المصالح التي من شأنها ان تربط مصر مع العراق الى الابد ، هل كان يمكن ان تقوم وتتكوّن ، لو لم يكن العراق عربياً ، ولو لم يشترك مع مصر في اللغة وفي حقبة طويلة من التاريخ ؟ ولماذا لا توجد مصالح مشتركة مماثلة لذلك بين مصر وبين تركيا ، وبين مصر وبين الحبشة . . مثلاً ؟

وأنا لا اشك في انكم عندما تفكرون في الامور بهذه الصورة تتوصلون الى تقدير الدور الخطير الذي تلعبه وحدة اللغة في توحيد الشعوب ، وتنسيق المصالح وتوجيهها .

أنا من الذين يعتقدون ان حياة الامم بلغتها ، وان شعورها بتاريخها . واعتقادي هذا لم يكن وليد عاطفة عمياء ، إنما هو نتيجة دراسات وابحاث تاريخية واجتماعية وسياسية طويلة .

انا أعتقد ان وحدة اللغة والتاريخ ستعمل عملها في العالم العربي حتماً ، وستتطور الامور من جراء ذلك تطوراً ينتهي الى اتحاد

الاقطار العربية عاجلًا او آجلًا . .

واما مهمة الذين يؤمنون بوحدة العرب من الآن، فستكون استكمال الوسائل اللازمة لتسريع هـــذا التطور ، ومكافحة العوائق التي تعتري سبيله ، وتعوق سيره .

وانا اعرف ان جميع المنورين لن يسيروا في صف واحد في هذا المضمار . والبعض سيقدم على السير في الصفوف الامـامية من القافلة ، والبعض سيتخلف عنها ، والبعض سيسعى الى توقيف سيرها بوسائل شتى . .

ولما كانت روزاليوسف تعودت السير في الصفوف الامـامية من قافلة التقدم أتمنى ان أراها في عداد الطلائع في هـذا المضمار ايضاً .

٣

تقولون : « أطالب بطرد اليهود من فلسطين، لا لأنهم يهود بل لأن مصالحهم تتعارض مع مصالحنا ، وأطماعهم خطر على استقلالنا وامننا » .

وحسناً ما تقولون. إلا انيأود ان اسألكم: متى بدأتم تشعرون بهذا الخطر ؟ متى آمنتم بان مصالح هؤلاء تتعارض مع مصالـح مصر ؟ هل كنتم قدرتم ذلك ، قبل عشر سنوات ، قبل عشرين سنة ، قبل ربع قرن ، مثلًا ؟

اني لا اقصد بسؤالي هذا ، انتم بالذات ، بل اقصد رجال القلم والسياسة في مصر بوجه عام . لانيي اعلم علم اليقـين ان معظم هؤلاء كان لا يعرف شيئاً عن قضية فلسطين ، وكان عدد غـير

قليل منهم يقول « ما لنا ولقضية فلسطين ». واني لا ازال اذكر السؤال الذي وجهه اليّ احد كبار رجال العلم في القاهرة ، قبل نحو ست سنوات ، خلال مناقشة جرت بيني وبينه حول كتاب مدرسي ، حين سألني : « سنة خمس واربعين ، هل كانت هناك قضية فلسطين ؟ »

وأظنكم تسلمون معي ، بان مصر لم تشعر بهذا الخطر العظيم إلا بعد ان تفاقم واصبح ملموساً لمس اليدين .

وأخشى ان تجركم سياسة « مصر اولاً » - الى اخطاء مماثلة لهذه - إذا لم تقترن ببعد النظر وسعة الافق - ، وان تجعلكم تعملون عكس مصالح مصر الحقيقية ، من جراء تركيز انظاركم حول حدود مصر الحالية .

٤

انكم تتحدثون كثيراً عن المصلحة ، وتشيرون الى اتحاد المصلحة واختلافها ، وتذهبون الى ان المصلحة هي التي تقرر الاتحاد او الانفصال .

ولكن هل تعتقدون ان المصلحة من الامور الظاهرة للعيان ؟ وهل تظنون انها من الامور الثابتة في كل الاحيان ؟

يجب ألا ننسى ان هناك مصالح مادية ، ومصالح معنوية .. مصالح عاجلة ، ومصالح آجلة ... مصالح عارضة ، ومصالح دائمة ... المصالح الخاصة بجماعة من الجماعات ، والمصالح العامة التي تهم جميع الطبقات . . المصالح الخاصة بمدينة من المدن ، والمصالح الشاملة لجميع انحاء البلاد . .

وهذه المصالح المتنوعة ، كثيراً ما تتعارض وتتضارب ... وهذا التضارب يتطلب بذل الجهود للتأليف بينهـــا ، وتضحية بعضها في سبيل الحصول على غيرها ، وايجـاد شيء من التوازن بين مقتضيات كل واحدة منها ...

والدولة عندما تتولى شئون الامة، تنظم هذه المصالح المتضاربة وتنسقها ، وتوجهها الوجهة التي تقتضيها أهمّ المصالح وأدومها ... وتوجد بذلك التوازن الضروري بينها .

ونستطيع ان نقول انه لا توجد أمة لا تتضارب فيها مصالح مختلف الجماعات في بعض الاحوال ؛ ولا توجد دولة لا تكون مسرحاً لتضارب المصالح وتوازنها في مختلف الميادين .

واذا رجعنا الى تواريخ الدول المختلفة ، وجـدنا فيها امثلة كثيرة على التطورات التي حدثت في فهم المصالح الحقيقية ، وعلى التنظيمات التي تمت للتأليف بين المصالح التي كانت تبدو متضاربة اشد التضارب .

ولذلك لا يجوز لنا ان نعتبر المصالح الظاهرة والقريبة العامل الاساسي في الاتحاد والانفصال .

مقارنات تتكلم !..

١

اندرست السلطنة العثمانية ، بعد الحرب العالمية الأولى ، في نفس الوقت الذي انقرضت فيه امبراطورية النمسا والمجر .

والأيالات السلافية الجنوبية من الامبراطورية المذكورة انفصلت عنها في نفس السنة التي انفصلت خلالها الولايات العربية عن السلطنة العثمانية .

ولكن .. الأيالات السلافية – الكرواتية ، والسلوفنية ، والبوسنه ، والهرسك – عنـــد ما انفصلت عن الامبراطورية النمساوية ، اتحدت فيما بينها ، ومـــع المملكة الصربية ومملكة الجبل الاسود ، فكونت بذلك دولة سلافية واحدة .

واما الولايات العربية – التي كان تعداد سكانهـا لا يختلف كثيراً عن تعداد يوغسلافيا – فقد انقسمت الى سبع دول .

وذلك مع ان يوغسلافيا قامت مقام دولتين مستقلتين وثلاث إيالات ممتازة ، لكل منها نظم وقوانين خاصة بها .

في حين ان الولايات العربية كانت تتبع قانوناً واحـــداً ، ونظماً موحدة .

٢

اندونيسيا .. عندما استقلت عن هولنـــدا ، عقب الحرب العالمية الثانية ، كونت دولة واحدة ، مع ان مجموع سكانها يبلغ ٧٦ مليوناً ، منتشرين على مئات من الجزر المتباعدة ...

والباكستان .. عندما تخلصت من الاستعمار البريطاني ، كونت دولة واحدة ، مع ان جزءيها الشرقي والغربي ، ينفصل بعضهما عن بعض بأراض هندية ، لا يقل طولها عن ألف وخمسمائة كيلومتر .

ولكن البلاد العربية المستقلة ، لا تزال منقسمة الى ثماني دول . مع ان اراضيها متصلة بعضها ببعض اتصالاً تاماً ، ومجموع سكانها لا يزيـــد كثيراً على نصف سكان كل من باكستان وأندونيسيا ..

٣

تدير الشؤون الخارجية في دولة الهند وزارة واحدة ..

ولكن الشؤون الخارجية في البلاد العربية المستقلة ، يديرها ثماني وزارات ...

والهند تعين سفيراً واحداً في كل من لنـــدن ، وباريس وواشنطن ، وأنقرة .. ولكن الدول العربية تعين ثمانية أضعاف ذلك .

مع ان عدد سكان الهند يبلـــغ تسعة أضعاف مجموع سكان الدول العربية المذكورة ! ..

ذيل
حول مقال

خلال طبع هـــذا الكتاب في بـــيروت نشرت مجلة الهلال التي تصدر في القاهرة – في عددها الصادر في ١ / ١ / ١٩٥٥ – مقالة تحت عنوان الجامعة الاسلامية واتحاد العرب – ولما كانت المقالة المذكورة تتضمن عدة أمور تتصل بالمواضيع التي عالجناها وناقشناها في الصحائف السابقة، رأينا ان نذيل الكتاب ، بعرض خطوطها الرئيسية مع نقدها ومناقشتها .

١

نشرت مجلة الهلال ، — في عددها الصادر في اليوم الاول من هذا العام — مقالة للاستاذ شفيق غربال ، تحت عنوان « الجامعة الاسلامية واتحاد العرب » .

تبدأ المقالة بكلمة عن الاسلام وتاريـــخ الاسلام ، ثم تضع هذا السؤال :

« هل يوجد تعارض بين الحركة العربية والجامعة الاسلامية ؟ وهذا على اعتبار ان الحركة العربية مما يقوم عـلى اساس العصبية القومية واللادينية ، وان الجامعة الاسلامية تقوم بحكم الاسم على الأساس الديني » .

وتجيب على هذا السؤال ، بما يلي :

« وقد تعين على إزالة الشبهة ان نحدد أثر العصبية في وجود العروبة في زماننا ، وان نتتبع — في ايجاز — عمل العامـلين في الحركة العربية .

« فاما العروبة في أوضاعها الراهنة ، فلم تنشأ عن العصبية ، بل نشأت عن فعل عوامل طارئة ، كان من آثارهـا شطر العالم الاسلامي الى شرق أقصى يقع في شرقي العراق ، والى وسط يمتد من العراق الى مصر ، والى غرب يقع غربي مصر . والشطر في حد

ذاته قديم ، وهو الى حد ما طبيعي ، متأثر بحقائق التاريخ والجغرافيا . ولكن كانت جناية العوامل الطارئة انها فصلت هذه الاقسام بعضها عن بعض . فألهت كل قسم بكوارثه ونكباته وصرفته الى الذود عن حياضه ، فانطوى على نفسه ، وجمد على ما هو عليه ، وخشي الحركة ، ومنع عن نفسه الاتصال بالغير .

« وبعد ، فما هي تلك الاحداث ؟ كانت الحروب الصليبية في الوسط ، وكانت اكتساحات التتار في الشرق ، وكان اجلاء المسلمين عن الأندلس ، ثم مهاجمة المغرب ، ثم حركات التطويق البحرية الكبرى التي أملكت الاوروبيين آسيا ، وأدت — فيما أدت اليه — الى إملاك الأوروبيين على الاقاليم العربية ، على اعتبار انها تخترقها أقصر الطرق الموصلة بين الأوروبيين وبين مناطق سيطرتهم . »

وبعد سرد بعض التفاصيل عن هذه الاحداث التاريخية ، تنتقل المقالة الى بحث العروبة ، فتقول ما يلي :

« ... تمكن الاوروبيون وبخاصة الانجليز من اخضاع السواحل العربية والفارسية لنفوذهم ، وتبع ذلك في القرن التاسع عشر ، امتداد السيطرة من السواحل الى قلب الاقاليم العربية في الوسط والمغرب وفي فارس .

« وعلى هذا النحو كان بدء العروبة كما عرفها التاريخ الحديث » .

ثم تواصل المقالة هذا البحث بالكلمات التالية :

« ولما آن للعرب ان يستيقظوا ، وان يهبوا لاصلاح شؤونهم

تنوعت لديهم أساليب الاصلاح ومناهجه ، طبقاً لما أملته عليهم ظروف اوطانهم . والتنوع شيء آخر ، غير التعارض . »

ونحن نعرف ان من المصلحين من انتسب لأوطان عربية تحكمها الدولة العثمانية حكماً عجز في كثير من الاحوال عن تحقيق مصالح اهلها الحسية والمعنوية ، وعمل في اواخر ايامه على إهدار عروبتهم ؛ ومن المصلحين من انتسب لأوطان عربية تحت السيادة العثمانية ولكن ازمة الحكم فيها في أيدي دول اوروبية ؛ كما ان من المصلحين من انتسب لاوطان اسلامية غير عربية تخضع لحكومة من الحكومات الاوروبية . كما ان من المصلحين من ثأثر تأثراً قوياً بالفكر الاوروبي ، فوضع خطته للاصلاح على اسس الفكر الاوروبي الحديث . واهمها أساسان : أحدهما اللادينية ، والآخر العصبية القومية .

« وبناء على اختلاف الرجال في الحكم على ما هو عملي وما هو غير عملي ، اختلفت البرامج ، ونشأت حركات يصفونها بانها اسلامية ، واخرى يصفونها بانها عربية . ونحن نذهب الى ان القائمين بها لم يروا تعارضاً فيما بينها ، اللهم الا فيما كان بين القوميين اللادينيين والمصلحين الذين قدروا ان الاستمساك بالاصول التاريخية للثقافة شرط اساسي للعمل والنجاح » .

« ولا ادري كيف يستطيع احد ان يتصور ان الاصلاح الديني كما قرره — مثلاً — الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده يعطل في قليل أو كثير عمل العاملين لاستقلال العرب ، أو جمع كلمتهم أو تآخيهم أو تعاونهم ؟ وقد ذكر شيخ الاسلام المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق في مقدمته لمقالات العروة الوثقى ان

دعوة الشيخ محمد عبده ، تنتظم اموراً ثلاثة :

« ١ . تحرير الفكر من قيد التقليد ، حتى لا يخضع العقل لسلطان غير سلطان البرهان ، ولا يتحكم فيه زعماء الدنيا ولا زعماء الاديان .

« ٢ . اعتبار الدين صديقاً للعلم ، له وظيفة يؤديها . وهما حاجتان من حاجات البشر ، لا تغني احداهما عن الاخرى .

« ٣ . فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه الى ينابيعها الاولى . »

« وهل في هذه إلا الاساس الوحيد لاية حركة عربية استقلالية اتحادية ؟ »

« وقد يظن ظان ان اختلاف العرب ديناً يقتضي تجريد حركتهم من عنصر الدين ، حرصاً على جمع الكلمة ومجاراة لما اتجهت اليه بعض الحركات القومية الحديثة . وهذا وهم ، أولاً لانه يناقض ما اثبته التاريخ عن مشاركة غير المسلمين في بناء الثقافة التاريخية ؛ وثانياً ، لانه يناقض ما اثبته التاريخ الحديث من مشاركة غير المسلمين في بناء الحركة العربية التحريرية الاستقلالية ؛ وثالثاً ، لانه يعطل المصلحة العامة الكبرى ، الا وهي جمع الكلمة على اصلاح ديني اسلامي مسيحي ، بصدّ نزعات الالحاد والمادية » .

٢

اني أرى في مضامين هذه المقالة وطياتها عدة أمور ، تستوجب النقد والنقاش :

أولاً ، ألاحظ ان الاستاذ شفيق غربال يربط في مقالته هذه

ـ القومية باللادينية ، وينعت القوميين باللادينيين ، ويجني بذلك على القومية وعلى القوميين .

لأن الفكرة القومية لا تتضمن انكار الدين أو استنكاره بوجه من الوجوه ، فربطها باللادينية يشوّه معانيها تشويهاً كبيراً ، فيحول دون فهمها على وجهها الصحيح .

يلوح لي ان الاستاذ استعمل كلمة «اللاديني» ، و«اللادينية» ، مقابل كلمة « لايك » الافرنجية ، ففي المقالة قرائن عديدة تدل على ذلك دلالة صريحة .

ولكن .. كلمة Laïque لا تعني Irreligieux ، إنما تعني Non religieux , non clérical , non écclésiastique . ولا حاجة الى القول بان عدم الانتساب الى « السلك الكهنوتي » لا يعني عدم الايمان بالدين . فالمرء يعتبر من « اللايك » ، اذا لم يكن ممن يتولون الوظائف الكهنوتية ، ولو كان من أشد المؤمنين بالله وبالدين ، ومن أحرص المواظبين على أداء فرائضه واقامة طقوسه ؛ ولذلك نستطيع ان نؤكد بان كلمة « اللاديني » لا تعبّر عما يقصده الأوروبيون من كلمة « اللايك » . واما الترجمة الصحيحة لهذه الكلمة ، فهي « العلماني » و « العلمانية » كما هو متعارف في كثير من البيئات المعنية بشؤون « الروحانية والعلمانية » .

ان نظرة سريعة الى تطور العلاقة بين الدين والعلم ـ ، وبالاحرى ، بين رجال الدين وبين رجال العلم ـ ، تظهر هذه الحقيقة بكل وضوح وجلاء :

من المعلوم ان رجال الدين – في القرون الوسطى ، في البلاد الغربية – كانوا يتدخلون في جميع الحركات الفكريه والأبحاث العلمية ، فيقبلون آراء المفكرين والكتاب أو يرفضونها ، حسب ما يذهبون اليه من مطابقتها أو مخالفتها لنصوص الكتب السماوية. وكثيراً ما كانوا يتهمونها بالالحاد ، اذا لم يجدوا « في العهد القديم أو العهد الجديد» ما يؤيدها تأييداً صريحاً ؛ والأحكام التي يصدرونها في هذه الامور ، كانت تستوجب « حرق الكتب » ، أو دعوة الكاتب الى التوبة والاستغفار ، أو اعدامه حرقاً بالنار .

ولعل أشهر هذه الوقائع ، كان الحكم الذي أصدره رجال الدين – في أوائل عصر النهضة – على « غاليله » المشهور : انهم اعتبروا قوله بدوران الارض منافياً للدين ، وفرضوا عليه أن يستغفر الله من الذنب العظيم الذي ارتكبه ، بقوله « الارض تدور » !

ان النضال بين رجال الدين ورجال العلم استمر طويلاً ؛ وانتهى في آخر الامر ، بانتصار رجال العلم على رجال الدين ، على أساس تقرير « استقلال العلم عن الدين » . وقد أصبح اليوم من الامور التي يسلم بها الجميع : ان الحقائق العلمية ، انما تكتسب عن طريق البحث والتجربة ، ولا تستخرج من نصوص الكتب السماوية . ولا حاجة الى القول بان تقرير هذه الحقيقة ، لا يعني انكار الدين او التنصل منه ؛ انما يعني الاعتراف بان لكل من الدين والعلم ميداناً خاصاً به ، يستطيع ان يجول ويصول فيه ، من غير ان يتقيد بحركات نظيره .

فالمهندس اليوم – مثلاً – يضع تصميماته ، ويجري حساباته ، من غير ان يرجع الى أحكام الدين ، ومن غير ان يستشير رجال الدين . ولكن سلوكه هذا ، لا يؤثر في اعتقاده الديني. فلا يمنعه مثلا – من ان يكون من أشد المؤمنين العاملين . فلا يخطر على بال أحد أن ينعت المهندس « باللادينية » ، لعدم رجوعه الى الاحكام الدينية ، في اعماله وحساباته الهندسية .

اننا نستطيع أن نقول نفس الشيء عن الاطباء ، وعن علماء التاريخ والاجتماع . وعن قواد الجيش ، وعن رجال السياسة .. أيضاً . فان كل واحد من هؤلاء يفكر ويبحث ويعمل – في ميادين اختصاصاته – مستقلاً عن الدين . وسلوكه هذا ، لا يجعله خارجاً على الدين ، فلا يسوغ اعتباره من اللادينيين .

وخلاصة القول : ان التفكير في بعض الامور مستقلاً عن الدين ، لا يعني انكار الدين ، انما يعني اعتبار تلك الامور مما لا يدخل في نطاق الامور الدينية ؛ وذلك لا يحول دون الرجوع الى الدين في سائر الميادين ، ودون الاهتمام بالدين اهتماماً خاصاً في بعض الميادين .

ولذلك كله ، قلت ، ولا أزال أقول : ان نعت القومية باللادينية والقوميين باللادينيين ، لا يتفق مع حقائق الامور ، بوجه من الوجوه .

٣

تخلط المقالة بين الدعوة الى الجامعة الاسلامية وبين الدعوة

الى الاصلاح الديني ، فانها تبدأ بالتكلم عن الجامعة الاسلامية ، ثم تحاول ان تبرهن عليها بنقل ما قاله الشيخ محمد عبده عن الاصلاح الديني .

في حين ان الدعوة الى الجامعة العربية الاسلامية شيء ، والدعوة الى الاصلاح الديني شيء آخر ، ولا يوجد بينهما تلازم منطقي ، يمنعنا من أن نلتزم احداهما دون الاخرى .

لنفرض ان شخصاً من الاشخاص يعتقد بالاقليمية المصرية ، فيقول « مصر ، بس » ، ولا يجد بذل اي جهد في سبيل اتحاد العرب او اتحاد المسلمين . افلا يمكن ان يقول – في الوقت نفسه – بضرورة اصلاح الشؤون الدينية في مصر ؟

ولنفرض انه يعتقد بالجامعة الاسلامية ، ويدعو الى اتحاد المسلمين . افلا يمكن ان يكون – في الوقت نفسه – من الجامدين الذين لا يسلمون بوجوب القيام بالاصلاحات الدينية ، بالمعنى الذي قصده الشيخ محمد عبده ، وبالشكل الذي ذكره الاستاذ شفيق غربال ؟

اني عرفت المئات والمئات من القائلين بالوحدة الاسلامية ؛ ولكني قلما صادفت بينهم من يسلم بمبدأ « عدم خضوع العقل لسلطان غير سلطان البرهان » .

وفي الاخير ، لنفرض ان شخصاً من الاشخاص يحارب النزعات الاقليمية ، ويدعو الى اتحاد البلاد العربية ، ولا يعتقد بامكان توحيد الامم الاسلامية . افلا يمكنه – في الوقت نفسه – ان يقول بضرورة الاصلاح الديني في البلاد العربية ، ويدعو الى هذا

الاصلاح ؟

اني – شخصياً – ممن يدعون الى اتحاد البلاد العربية، من غير ان يعتقدوا بامكان توحيد البلاد الاسلامية ، ومع ذلك أعتقد بضرورة اصلاح الاوضاع الدينية .

٤

ولكن اهم الامور التي يجب ان نؤاخذ عليها مقالة الاستاذ شفيق غربال، هو : عدم تقديرها للدور الخطير الذي تلعبه اللغة في حياة الاقوام وثقافتها .

فان الاستاذ غربال لا يعير اقل اهتمام لأمر « اختلاف اللغات بين البلاد الاسلامية » ، لا في أقسام المقالة التي نقلتها آنفاً ، ولا في الاقسام الاخرى منها .

انه يشير الى انقسام البلاد الاسلامية الى شرق أقصى ، والى وسط ، والى مغرب ، ولكنه لا يذكر شيئاً عن انقسامها الى مناطق وعوالم عربية وفارسية ، وتركية ، وهنديه ومالائية .. الخ ، كما انه لا يلتفت الى اختلاف الاوضاع اللغوية ، في الاقسام الثلاثة التي ذكرها .

اذ من المعلوم ان ما يسميه الاستاذ «الوسط والمغرب» يدخل في نطاق العالم العربي ، ولكن القسم الذي يسميه «الشرق الاقصى» يبقى خارج نطاق العالم المذكور ؛ وفضلاً عن ذلك ، فان هذا القسم ينقسم – من حيث اللغة والثقافة – الى مناطق عديدة ، يختلف بعضها عن بعض، وعن منطقة العالم العربي، اختلافاً كبيراً .

فكيف يجوز لنا ان نعتبر هذه الاقسام الثلاثة « متماثلة » ؟ وكيف يسوغ لنا ان نزعم ان هذه الانقسامات كلها ، من « آثار الاحداث التاريخية الطارئة ؟ »

واذا جارينا الاستاذ شفيق غربال ، في هذا المضمار ، فاعتبرنا « اختلاف اللغة » من الامور التـــاريخية الطارئة ، لا ادري هل يبقى لدينا شيء يستحق التسمية باسم « الاحداث التـاريخية الاساسية » ؟

يشير الاستاذ غربال في موضع آخر من مقالته الى تنوع الثقافة الاسلامية ، فيقول : « اذ هي في الاندلس مثلاً تختلف عنها في الهند ، وهي في الغابات او المراعي او السواحل الافريقية تختلف عنها في الشام والعراق » . ومن الغريب انه لا يلتفت هنا ايضاً الى اختلاف الثقافة الاسلامية تبعاً للغات البـلاد التي تحتضنها ، كأن تأثير اللغة في الثقافة ، أقل وأضأل من تأثير الغـــابات والمراعي فيها !

اني اعتقد ان اللغة من اهم عناصر الثقافة ، فهي اعمق جذوراً من جميـع العناصر الاخرى .

ان تواريخنا القديمة لم تقدر اهمية اللغة في حياة الامم حق قدرها فلم تذكر شيئاً عن تطوراتها ، الا بمنـاسبة امر الخليفة بتحويل لغة الدواوين الى العربية .

ولكنا نعلم الآن : ان اللغات تتنازع وتتصارع على مسرح التاريخ . كما نعلم ان الصراع الذي يقوم بين اللغات ، يكوّن نوعاً من الحروب الباردة الصامتة ، التي لا تظهر للعيان ، والتي تستمر

مدة أجيال فأجيال ، بدون انقطاع ، ولكنها تؤدي الى نتائج اخطر بكثير من نتائج الحروب التي تصلصل فيها السيوف ، وتزمجر فيها المدافع ، وتسيل فيها الدماء .

ان الغفلة عن هذه الحقيقة الاجتماعية الهامة ، كانت من افدح العيوب التي منيت بها تواريخنا القديمة ، والتي لا تزال تمنى بها كثير من تواريخنا الحديثة .

واتمنى بكل جوارحي ، ان لا تطول بنا هذه الغفلة ، اكثر مما طالت الى الان .

***

يشير الاستاذ شفيق غربال الى التعارض القائم « بين القوميين اللادينيين وبين المصلحين الذين قدروا ان الاستمساك بالاصول التاريخية للثقافة شرط اساسي للنجاح . »

واما انا فأرى من واجبي ان اقول ، — بعد ان نفيت عن القوميين تهمة اللادينية — انهم ايضاً يقولون بوجوب الاستمساك بالاصول التاريخية للثقافة ، ولكنهم يعتقدون بان اهم واعمق الاصول التاريخية للثقافة هي اللغة ، التي يهملها الاستاذ شفيق غربال اهمالاً كلياً ...

والفرق بينهم وبين الاستاذ ، يعود — من حيث الاساس — الى تقدير او عدم تقدير اهمية اللغة ، في حياة الامم وثقافتها ..

٥

بعد هذه الملاحظات الاساسية التى حامت حول أسس القومية

العربية ، ارى ان اشير اشارة عابرة الى بعض الامور الاخرى ، التي تخالف فيها المقالة المذكورة بعض الحقائق التاريخية :

١ – عندما يتطرق الاستاذ غربال الى مقارنة الثقافة الاسلامية بالثقافة الاوروبية ، يزعم ان « الثقافة الاوروبية تخلت عن نصرانيتها » ثم يقول « وهذا في نظر العارفين سرّ بلواها » .

ان مـــا اعرفه عن الثقافة الاوروبية وتاريخ تلك الثقافة لا يسمح لي بتأييد هذا الزعم . واميل الى الظن بانه ناتج عن عدم التمييز بين فصل الدين عن العلم والسياسة ، وبين التخلي عن الدين بصورة عامة .

٢ – يقول الاستاذ غربال ان « الحروب الصليبية اقتضت تسليم الزمام لرجال السيف » ولهذا السبب غلبت « كفة السياسة السلطانية على كفـــة السياسة الشرعية ، وضعفت لذلك الرياسة الدينية تبعاً لذلك ضعفاً بيناً » .

في حين ان كل ذلك كان قد حدث قبـــل بدء الحروب الصليبية بقرون عديدة . فان الرئاسة الدينية – اي الخلافة – كانت ضعفت وهزلت منذ انقضاء العهد العباسي الأول ، حيث ذهبت معاني الخلافة ، ولم يبق إلا اسمها ، وحيث « صار الامر ملكاً بحتاً » ، و « صار السلاطين يدينون للخليفة تبركاً » .

وابن خلدون كان قد لاحظ ودوّن هذا التحوّل والتطور بكل وضوح وجلاء ، كما انه كان علله تعليلاً يستند الى « طبيعة الاجتماع البشري » .

فالزعم بان « تسليم الزمام الى رجال السيف » قـد نتج عن

الحروب الصليبية ، يخالف اثبت واوضح حقائق التاريخ ويكون بمثابة « تعليل الحادث بما حدث بعده » .

٣ – يزعم الاستاذ غربال بأن انفصال الاقاليم العربيـــة عن سائر اقاليم العالم الاسلامي » كان من نتائج الحروب الصليبية من ناحية ، والغزوات التتارية من ناحية اخرى .

ولكن هذا الزعم لا يتفق مـــع حقائق التاريخ . اذ من المؤكد ان العالم الاسلامي كان قد فقد وحدته – من الوجوه المذهبية والادارية والسياسية – قبـــل بدء الحروب والغزوات المذكورة بقرون عديدة .

٤ – يقول الاستاذ غربال « ان العروبة بأوضاعها الراهنة لم تنشأ عن العصبية ، بل نشأت عن فعل عوامل تاريخية طارئة » .

كما يزعم ان بدء العروبة « كما عرفها التاريخ الحديث » كان من نتائج امتداد سيطرة الاوروبيين الى قلب الاقاليم العربية في الوسط والمغرب وفي فارس » .

انه يخالف – هنا ايضاً – حقائق التاريخ والاجتماع :

يجب على الباحثين في أمثال هـــذه القضايا ان يميـــزوا بين « العروبة » وبين « الشعور بالعروبة » وبتعبير آخر بـــين العروبة نفسها ، وبين التفكير بها . ومما لا شك فيـه ان بدء العروبة يعود الى تاريخ سحيق في القدم ، يسبق تاريخ الوقائع التي ذكرهـا الاستاذ بسلسلة طويلة من القرون . واما الشعور بالعروبة ، والتفكير بها وجعلها محور سياسة واضحة .. فما لم يبدأ الا بعد الاحداث المذكورة بمدة غير يسيرة .

اني أعتقد ان تاريخ العروبة لا يمكن ان يفهم على وجـــهه الصحيح ، الا بتتبع الوقائع التي رافقت انتشار اللغـة العربية واستقرارها :

من المعلوم ان اللغة العربية ، كانت – قبل الاسلام – شبه محصورة في الجزيرة العربية ؛ فلم تتعدّ حـدود الجزيرة الا في حافات الهلال الخصيب الذي يعلوها . ولكنها بعـــد الاسلام أخذت تنتشر بسرعة ، في قارتي آسيا وافريقيا ، الى اقطـــار مترامية الاطراف .

فان الفتوحات العربية التي اعقبت ظهور الاسلام ، نشرت الديانة الاسلامية من ناحية واللغة العربية من ناحية اخرى .

انها لم تفرض ذلك على سكان البلاد المفتوحة فرضاً ؛ ولكن سير الوقائع – وتفاعل الحياة الاجتماعية – ادى الى انتشار الديانة الاسلامية واللغة العربية انتشاراً كبيراً .

ولكن نتائج هذا الانتشار ، لم تكن متساوية في كل البلاد:

أ)–في بعض البلاد المفتوحة، تغلبت اللغة العربية على اللغات المحلية تغلباً تاماً ؛ فأصبحت لغة عامة الناس في تلك البلاد كما ان الديانة الاسلامية صارت ديانة الاكثرية فيها . وهـذه البلاد هي التي تكوّن العالم العربي ، في الحالة الحاضرة .

ب) – وفي بعض البلاد لم تتغلب اللغة العربية على اللغات المحلية تغلباً تاماً ، وإن اثرت فيهـا تأثيراً كبيراً . وتكونت بذلك امم اسلامية غير عربية، كما حدث في ايران وما وراءالنهر.

ج)– في بعض البلاد انتشرت اللغة العربية والديانة الاسلامية

وبقيت فيها مدة قرون عديدة . الا ان سلسلة الوقائع التاريخية انتهت الى انحسار اللغة العربية والديانة الاسلامية ، من تلك البلاد ، بصورة نهائية ، كما حدث في الاندلس وصقلية .

د) – ولكن في بعض البلاد ، انتشرت الديانة الاسلامية نتيجة لفتوحات قامت بها شعوب اسلامية غير عربية ؛ وطبيعي ان هذه الفتوحات لم تنشر اللغة العربية ، بل نشرت لغة الفاتحين. ان فتوحات الاتراك السلاجقة في الاناضول والاتراك العثمانيين في البلقان ، كانت من هذا القبيل : انها نشرت الديانة الاسلامية ونشرت معها اللغة التركية .

وأما فتوحات المغول في الهند ، فأوجدت لغة جديدة ، مزيجة من التركية والفارسية والعربية .

ولا حاجة الى القول ان جميع هذه الفتوحات ، وسعت العالم الاسلامي ، من غير ان توسع العالم العربي .

ه) – وفي الاخير ، في بعض البلاد ، انتشرت الديانة الاسلامية ، من غير فتوحات عسكرية ، بتأثير التجار والوعاظ ، كما حدث في اندونيسيا وماليزيا .

ولهذه الاسباب كلها أصبح العالم الاسلامي أوسع بكثير من العالم العربي .

واما ، لماذا سارت الاحوال على هذا المنوال ؟ ... لماذا تغلبت اللغة العربية على بعض اللغات تغلباً تاماً ، ولم تتغلب على بعضها الآخر ؟ .. ولماذا توقفت انتصاراتها الحاسمة ، في سفوح جبال زاغروس ؟ ..

اني لا ارى لزوماً ولا مجالاً لبحث ذلك وشرحه هنا . ولكني اقول ؛ ان عوامل ذلك كانت كثيرة ومتنوعة . منها : مبلغ قرابة اللغات المذكورة الى اللغة العربية أو مغايرتها لها ... ومنها : حيوية كل واحدة من تلك اللغات وثروتها الادبية في عهد الفتوحات العربية .. ومنها :

هجرات القبائل العربية التي رافقت الفتوحات، او تمت بعدها ومبلغ استمرار تلك الهجرات ....

وأقول بلا تردد : ان تأثير هذه العوامل المختلفة ، كان اقدم واعمق واوسع بكثير من تأثير الحروب الصليبية والغزوات التتارية التي يشير اليها الاستاذ غربال .

كلمة ختامية

قبل أن أختم هذا العرض والنقد ، أود أن اقف قليلاً عند الكلمة التي اختتم بها الاستاذ شفيق غربال مقالته المنشورة في مجلة الهلال :

يفاجيء الاستاذ قراءه ، في نهاية المقالة بفكرة جديدة — لا تمت بصلة ما الى ما سبقها من الآراء — هذه الفكرة ، هي : الدعوة الى « جمع الكلمة على اصلاح ديني اسلامي مسيحي ، يصد نزعات الالحاد والمادية » .

ويتبين من ذلك ان الاستاذ شفيق غربال يرى لزوماً لأصلاح يشمل الدين الاسلامي والدين المسيحي في وقت واحد ليشترك الدينان في العمل لتحقيق غاية واحدة ، هي « صد نزعات الالحاد والمادية » .

افلا يترتب عليه — والحالة هذه — ان يسلم بان هذا الاشتراك لا يمكن أن يتم تحت راية أحد الدينين ؟ بل انه يحتاج الى راية اخرى ، تختلف عن راية كل منهما ، ليستطيع الدينان ان يجتمعا ويعملا تحت ظلها .. ؟

وهذه الراية الجامعة — بالنسبة الينا — ، هل يمكن ان تكون شيئاً غير « راية الوطنية والقومية » ، وبتعبير أقصر : راية العروبة؟

أفلا يحق لنا أن نقول ، هنا ايضاً : العروبة أولاً ؟

القاهرة ١٨ / ١ / ١٩٥٥

فهرست

مقدمة ٥

ما أغربنا ٧

حقائق يجب ان نعرفها حق المعرفة ونؤمن بها اشد الايمان :

البلاد العربية ١١

العرب ١٢

الدول العربية ١٣

الامة العربية ١٣

وقائع واحداث يجب ان نتذكرها ونتأمل فيها ونتعظ بها :

بين حلب وعمان ١٨

من حائل إلى العسير ومن جدة إلى الظهران ٣٦

استدراك ومناقشة ٥١

مزالق التشبيهات :

اصفار سعد زغلول ٦٠

مرآة عبد الرحمن عزام ٦٨

من أنا ومن أنت بل من نحن ؟

من انا ومن انت ٧٧

ملاحظات على الاسئلة ٨٣

مواضيع البحث ٩٠

الرابطة الافريقية ٩٠ - رابطة البحر المتوسط ٩٦ - الرابطة الاسلامية ٩٩ - رابطةالعروبة١٠٨ - النزعة الفرعونية١١٣

آراؤهم : ١١٥

حديث عبدالرحمن عزام ١١٦ - حديث حسين كامل سليم ١٢٨ - حديث وليم سليم حنا ١٣٤ — رأي فكري أباظه ١٣٦

خاتمـــة ١٣٨

نحو الولايات المتحدة العربية

فالدولة العربية الكبرى

مذكرة القدسي ١٤١

مقالة مصطفى امين ١٤٥

استدراك ١٥٩

إلى من يقول : « مصر أولاً »

حول الوحدة العربية ١٦٣

مقارنات تتكلم ١٧٠

ذيل : حول مقال ١٧٢

كلمة ختامية ١٨٩

٢٢٩ ثانية / ١٠ / ٥٥ / ٢٠٠٠

DATE DUE

321.8:H97uA:c.1
الحصري ،ساطع
العروبة اولا
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01014605